



# الأهوار... حلم الأساطير ... ودمعة جنوب الله !.....

نعيم عبد مهلهل

## الفصل الأول ...الحياة المبتلاة بوهم الفردوس ..الأهوار

... (في اليوم الذي وزعت فيه الأنصبة كانت الحصاة المخصصة لي العذاب والألم )  
من كتاب ألواح سومر لصومانييل كريمر /شاعر سومري مجهول

ليس هناك أعذب وأجمل مما يمنحه الماء لنا من خيال ، فهو يطفو بنا أينما نريد ، حتى الى أمكنة الفردوس ( وحدثناقه ، وبالرغم من هذا ليس للماء السنة تقول وداعاً لكل من على الضفاف

الروائي البرازيلي أستورياس

على الأرض ، كانت رغبة النبي الأول أن يكون مهبطه قرب ساقية ماء ، فلبى طلبه وأنزل (ع) يوم أنزل الله آدم قرب ملتقى نهريين يهبطان من شمال الأرض الى جنوبها ، دجلة والفرات اللذين يشكلان ذاكرة التحضر لكل ذرة تراب فوق هذه الأرض ، وقد أستوطن على ضفافهما مختلف الأقوام والحضارات والممالك والعشائر وانتهاءً بمتروحي الليل وعشاق الهوى ، الجميع أخذوا من النهريين كلمة الوجود وصنعوا منها حياتهم وعاشوا على حب الله والماء اخوة من مذاهب واثنيات واعراق مختلفة حتى إن دجلة والفرات لملما أطراف الثوب العراقي بإصرار وعناد بالرغم من الريح الغربية التي كانت تمزق أطراف هذا الثوب في غزواتها التاريخية العديدة ، وعلى ضفاف هل لي أملٌ بالانحدار جنوب بابل لأجد الآلهة ) :الفرات وقف الإسكندر المقدوني واطلق آهة أوصلته الى المنية ، وربما كان المقدوني يبحث عن مغامرة مشابهة الى (التي صنعت من جنائن الماء خلودها وحروف الكتابة مغامرة ملك اوروك جلجامش ، التي قد يكون قد قرأها في ترجمتها البابلية على واحد من رفوف مكتبات معابد الإله مردوخ ، وجلجامش كان ابن القصب والماء ، يعني أنه ابن الأهوار ، وحتماً كان يجيد صناعة القارب ليصل ربما أبعد مما وصل إليه الإسكندر حتى لو في حدود الخيال فقط ، (المردى) المظلي بالقيصر وكان يجيد دفع وهذا ربما هو ما شد الملك المقدوني ليحذو حذو جلجامش ، لأن البطل السومري كان يتحدث عن خلود وفردوس وأبد لاينتهي بظلمة قبر وجسد ينخره الدود وهو ما كان وما زال يرهب ويقض جميع مضاجع الأباطرة والملوك ...ورؤساء الجمهوريات والأثرياء من أعضاء البرلمانات ومجالس الشيوخ كانت سهول وادي الرافدين مكاناً مثالياً لصناعة البور الحضرية المختلفة ، وكانت منطقة جذب مغرية لكل أولئك الباحثين عن الدفاء والغذاء والاستقرار لهذا تعاقبت عليها الدويلات والسلالات ذات العروق والانتماءات المختلفة ، كل هذه المفصلات دفعت هذا الوعي لكشف الجديد ، فكانت المناغاة ، وكان الطين ، وكان اللوح ، وكان الحرف ، وكانت الكلمة التي صنع العراقيون منها تاريخهم الذي تلونت فيه أشكال وجود لم تستقر فيه حال أبداً ، بل كانت خطوطه البيانية تصعد وتنزل وفق إرادات خضع لها العراقي بفعل فطرته وطيبته ، إرادات تربع عليها الملوك والأمراء والإقطاعيون ، فكانت الحضارة العراقية التي شهت نموها الكوني مخالطة طوب الطين بنصل السيف ، ولهذا نرى في صورة الإبداع النحتي للملاحم مشاهد غزو وموت واسود تنهش عبيداً ولدت الكلمة مع ولادة الحرف والتطور الذي صاحب نشأته من الشكل الصوري الى الشكل التعبيري الذي ظل معنا حتى الساعة

كان الحرف المسماري يمثل ذائقة مكتشفة لحاجة كبيرة هيأت للمجتمع العراقي البدائي مراحل حضارية مختلفة صاحبها الكثير من المتغيرات الكبيرة والهائلة والتي كان الطوفان أكثرها تأثيراً في هذا المتغير والذي صنع مع نفاذ تأثيره مكاناً بينياً صالحاً **لهكذا** نمط من الحياة الحضارية التي يطلق عليها حضارة القصب والطين شكل القصب ذاكرة المعمار الأول لصناعة الظل الذي نقل الإنسان من العراء الى السقف وليغادر والى الأبد حياة العراء ، وكان الأداة الأولى التي دافع فيها عن نفسه ضد الحيوانات الكاسرة والمتطفلين قبل أن يتعلم التعدين ويحول الحديد الى سيف وسكين ومعهما تبدأ الحروب ويبدأ الضجيج والفوضى حتى وهو يؤسس من بقايا المياه التي خلفها الطوفان المدن والقرى والممالك البدائية في عصور جاءت بعد الانكماش الجليدي والبدائية الحجرية ليأتي القصب ومنه يصنع أول أداة للكتابة وهو القلم الذي سير حافظه المدببة على لوح الطين الرطب ليكتب أول

الحروف التي **حملت** معنى هاجسه الأول وعبرت عن رغبة مكبوتة ربما أولها كانت مشاعر حب ومودة **تجاه** أنثى ما.

خلفت حضارة القصب الرافدينية مجدا هائلا من المنجز الذي أورث المتعاقب من الزمن تراثاً **رويوياً** ومادياً وفكرياً مهد لولادة حضارات عظيمة أخرى كالبابلية والأكادية والآشورية ، وكان **تأثيرها** ممتدا إلى جهات كثيرة من العالم بفضل تأسيس قاعدة للتجارة مع الأبعد كما كان يمارسه السومريون بناة حضارة القصب الأوائل مع الشعوب الهندية والأقوام الفارسية وتلك التي سكنت الخليج العربي وكان لهم أيضا صلات تجارية مع آسيا الوسطى وربما ابعد من ذلك

وعلى مدى عقود طويلة عاشت حضارة القصب والطين وازدهرت فيها حواضر وممالك كانت في ذلك الزمن تمثل (نقطة المدن على الأرض ومحطة لبعث الرسل والأنبياء ، من آدم ومرورا بنوح وإبراهيم ولوط وأيوب ويونس وغيرهم من الذين حملوا شمعة التبشير **ليقاوموا** ما أسس عليه الإنسان من روى في طرائق التعبد (عليهم السلام ، عندما حطم آلهة أور بفاسه وليثبت لقومه أنها مجرد أحجار ودمى لا تنطق ولا (ع) والإيمان كما فعل إبراهيم ..تفعل شيء

لا تورشف الألواح تواريخ الأنبياء بصورة واضحة ودقيقة مثلما فعلت الكتب السماوية ، ولكن اللوح أرخ لتفاصيل الحياة بكل مفاصلها حتى الروحي والديني منها ، ولكنه في هذا الجانب كان يؤرخ عبادات غير تلك التي أنزلت بواسطة الرسل والأنبياء ، وهذا لا يعني أن هذه الأمم والشعوب لم تنتبه إلى هدي هذه الكتب ، بل لأن تلك الألواح أرخت تواريخ كان فيها الإنسان يؤمن بالشرك والحجر وآلهة مسماة من قبله يعتقد إنها المخلصة ، وكان لكل شعب وبالرغم من هذا خلق هذا التنوع في اختيار وصناعة الآلهة أفاقاً واسعة للاكتشاف ..آلهته ، بل وكل مدينة آلهتها والأبداع والتطور في كل الميادين ، وما تم كشفه في أقبية مقبرة أور المقدسة من قبل العلامة ليوناردو وولي في يكشف لنا عن مدى التطور والرقى الذي وصلت له الحضارة السومرية في زمن سلالة أور الثالثة بدءاً 1920 عام من الموسيقى وانتهاء بدقة وروعة المصوغات الذهبية وما خلفته هذه السلالة من ألواح تشريع لملوكتها وأهمها فيما كان ابنه شولكي من امهر العازفين والمؤلفين .شريعة مؤسس هذه السلالة الملك السومري أور – نمو ..الموسيقيين وكان كاهناً وشاعراً أيضاً

صنع القصب وعياً مفتوحاً للذاكرة العراقية ، وشكل مع الطين ثنائياً أزلياً في محاولة العراقي لتطوير حياته وبينته في الجانب الفكري والمعماري ، وكانت بيوت القصب التي مازالت شاخصة حتى هذا اليوم في قرى ومدن الأهوار ، هي ذاتها من اتخذها العراقيون الأوائل أمكنة للسكن وللتعبد ولبناء سلالاتهم المجيدة كان الطين يرتبط بالخلق العراقي الرافديني من خلال خلق الله **البشر** ، لهذا فهو يرتبط بالوجود الحضاري والأزلي للإنسان أكثر من أي عنصر آخر ويشاركة الماء في هذا الامتياز ، لنتجاوز مسمى حضارة القصب والطين فنقول الحضارة العراقية هي حضارة الطين والماء والقصب وتكلم آدم فأنتج لنا البشرية ، وتكلمت البشرية فأنتجت لنا التاريخ ، وتكلم .. تكلم الطين فأنتج لنا آدم عليه السلام ..التأريخ فأنتج لنا العبر والتجارب

هذه **البدئية** هي نتاج هذا الاختيار الذي وقع على هذه البقعة من الكون لتكون موطن البدء والحلم والهاجس وهندسة الحرف ، ومن الحرف كانت المعرفة ، ومن المعرفة كانت الحياة الجديدة التي كان الطين **واحداً** من **أسس** نشأتها وتطورها ، الذي حمل كل اشتغال البشر وإحساسهم بالوجود وفعاليتهم التي يكاد يكون فيها البناء وطقوس العبادة والحرب والزراعة هي أهم ما كان الإنسان العراقي الأول يعيه ويمارسه وعلى أديم **شواطئها** كتبت تفاصيل الدهشة الكونية .العناصر الثلاثة امتزجت في وحدة صلبة وصنعت هذه الخارطة من قصيدة الشعر إلى سند شراء العبد وحتى الملحمة .الأولى

تدوين يؤرخ الفعل والحديث ، فكانت يوميات القرية والمدينة والمعبد **تريناً سيراً** ينبض بالفعل الجاد والعمل الدووب الذي رافق الإنسان الرافديني منذ صوت مطرقة الحداد ومروراً بمحراث الزراعة وانتهاء بسيف المعركة ، وقانع تتلوها أخرى أراد فيها الإنسان أن يثبت رقى **انتمانه** وتحوله من برية اللامعنى إلى مدنية الكلام والعاطفة وهذا ما بدا تأثيره واضحاً في جميع المدونات التي كتبها بقلم القصب على الطين الرطب والتي تحكي .والحب تفاصيل مدهشة عن أحاسيس الفرح والحزن والخلود وطاعة الملك وافتراس العدو في ساحة المعركة وشرائع النكاح والخيانة الزوجية والبيع بالمقايضة وأسلوب الرسائل المتبادلة بين العاشق وعشيقته وبين الإنسان وآلهته وبين الملك وولاته

دون العراقيون خليقتهم الأولى بانتظام واستعانوا بالحرف الذي اكتشفوه ليسجلوا هذه الوقائع وفق المرني والمتخيل

المرني هو ماسجلته يومياتهم والمراسيم وتواريخ الملوك والأحداث وحروب المدن والسلالات وطقوس الأعياد

والمناسبات ، والمتخيل هو أساطيرهم والملاحم والتعاويد ونصوص التودد إلى الآلهة وطلب رضاها والمغفرة وبين هذين الهاجسين تعاقبت أجيال وعاشت السلالات والممالك والأمباطوريات تبني مجدها وحضاراتها وفق ما اكتسبت شعوبها من أرث وتقاليد وثقافة ليختلط في تلك الأمم أهم فاعلين حضاريين ظلا يلتصقان في حياة الشعوب ويبدو أن اقتران التدوين في الحرب ظل لصيقاً تاريخياً .والأمم حتى يومنا هذا ،هما هاجس التدوين وهاجس الحرب وملازماً زمنياً أنتجا هذا الكم الهائل من التراث والشواهد مثل المسلات والرقم وأسفار حياة الشعوب التي كانت لا كما فعل ملوك سومر واشور وبابل وغيرهم من الشعوب العراقية .تكتب جيداً إلا عندما تنتهي معاركها المصيرية التي سكنت هذه البلاد منذ خليقة الطين وحتى اكتشاف **المعادن مثل الحديد** وغيره التي ساهمت في دفع المنتج الحضاري وتطوره ومنها صناعة ادوات الفلاحة و**مصوغات الذهب والفضة** ومكايل البيع و**الشراء** وأسلحة الحروب والأواني النذرية والطبخ وغيرها من مستلزمات الحياة ، وكل هذه الفعاليات كانت أرض ما بين النهرين هي مكانها المزدهر والأزلي

وكانت المنطقة التي غمرت بالفيضان الموسمي للنهرين والتي تسمى الأهوار هي الحضارة الأولى للتجمعات المدنية في العراق بعدما كانت الحياة المدنية في الشمال تقترب من حياة الكهوف والمجمعات الطينية الصغيرة ، ويبدو أن الوعي العراقي في أزلها بدأ جنوبياً عندما أكتشفت اوروك صورة الحرف ومفهومه ، وكان للقصب النبات بكثافة في المياه الضحلة **دور كبير** في تطوير شكل الحرف ورسمه ، وعندما ولد الحرف هناك ولدت معه الأفكار والمدونات وما كان يشغل بال الإنسان من أن النهاية لن تكون مجرد **هيكل عظمي** في العدم بل أن الخلود الآخر موجود في مكان ما ، بعض المدونات افترضته سماوياً ، والآخر افترضه أرضياً كما في جنة دلمون أعتقد أن المكان وجماله واتساع مدى المسطحات التي فيه أضافت الى الثروة الطبيعية ،الحيوانية منها والنباتية والدفع الدائم أعطى للمكان خصوصية ان يتعلق فيه الإنسان الأول ويضيف اليه الكثير من الهالات المؤسرة والحقيقية ولتجعله مكاناً مقدساً ينظر اليه بكثير من الرهبة والتأمل والتطلع ، ولهذا كانت أدبيات وأساطير الإنسان الأول تبني موضوعاتها على هذه المكونات ، كما في حلم الملك كوديا الذي يعد أول الأحلام التي كان فيها مؤشر الأمر يراد **منه** خدمة الآخرين كما في إشارة التيلغ السماوي للأنبياء والرسول عندما حلم بأمر الآلهة **أن** يذهب إلى عمق الأهوار ليحلب القصب ويبني معبداً لها

وفي أسطورة التحدي الأولى التي أراد فيها الإنسان أن يصبح نداءً لآلهة الفردوس وهي أسطورة آدابا ، الذي كان صيادا للسمك ، وهي واحدة من أهم وأشهر مهن سكان الأهوار ، وهذا يعني إن آدابا كان رجلاً أهوارياً ،وروى تخيل الفردوس ورغبته فيه سكنته قبل غيره من سكان البيئات الأخرى في وادي الرافدين ، حيث لم تذكر لنا الأدبيات القادمة من آشور وبابل عن هاجس البحث عن الخلود سوى ما نقلوه هم وورثوه من الآداب السومرية التي عاشت سلالاتها في عمق الأهوار وعلى ضفافه ، والكثير من الجداريات ترينا طبيعة ما كان موجوداً ويعاش في هذه البيئة من صور ونحوت لأسراب الطيور والسمك والعربات التي تجرها الجواميس وبيوت القصب ، حتى اكتشف علمياً أن شكل المضيف العربي الذي يبني في الأهوار من مادة القصب والمتميز في بوابته وشكله المحدودب ما هو إلا **شكل متوارث** من بيوت أهل الأهوار من السومريين الذين كانوا يعيشون هناك ويتخلون فراديسهم وحياتهم مثلما تعكسها عليهم رؤى الطبيعة وبيئتها وليظل هذا الفردوس واحداً من صفات التشبث بالمكان والالتصاق **به** بالرغم من الظروف القاهرة التي عاشها أبناء هذه المناطق بدءاً من الغزوات الأجنبية التي قادها الفرس و**العثمانيون** والإنكليز وانتهاء بمؤثرات الحروب الحديثة ومشاريع التجفيف ودفع سكان هذه المناطق للهجرة والابتعاد عن **مواطن** سكناهم ، فكانت هذه العملية كمن يخرج السمكة من شاطئها ويريد لها أن غير أن المكان وكما عهدته التواريخ ظل مرتبطاً بذاته البشرية والجغرافية ، وعاش رغم ظمأ .تعيش بعيداً عنه الأنهر والسواقي في ممكن الحياة البسيطة وتحولت تلك المسطحات الى مشاريع لزراعة موسمية للحنطة والشعير التي كانت تشكل مجتمعات (الأيشنات )لم يكتب لها النجاح في الكثير من مفاصلها ، اختفت بشكل تدريجي تلك سكانية صغيرة داخل المياه ، فيما اختفت بعض أزيات الطبيعة التي كانت تشهد مواسم تجمعات الطير القادم من أمكنة بعيدة حيث مثلت الأهوار مشاتي أمنة للكثير من طيور المناطق الأوربية الباردة مثل الإوز والسنونو وبعضها يأتي بهجرات منتظمة من الصين ومناطق جنوب شرق آسيا مثل البط والحذاف والكرابي ودجاج الماء وغيره من الطيور

هذا المفترض كما في الأخيلة العراقية القديمة فاشتغلت عليه ومنذ سنوات الكثير من الأفكار والخطط والمشاريع والمزايدات ، وظهرت على هامش المكان الكثير من منظمات المجتمع المدني والمؤسسات والتجمعات البيئية والشعبية ، تدافع عن المكان وخاصيته وضرورة تطويره وعقدت عشرات المؤتمرات والندوات ، وصارت لافتة أحياء بيئية الأهوار لافتة عريضة لمن يحب المكان ويحرص بنفسه غيور ووطني على تقديم المقترحات والعون والكشوفات ، وآخرون يريدونه واجهة للكسب والإثراء والإيفاد ، وبدأ الصراع الخفي بين المؤسسات الحكومية

المسؤولة عن تطوير المكان وبين جهات أخرى لها الكثير من المصالح والأجندات تجاه المكان ومنها أجنדת حزبية وأخرى عشائرية وربما هناك من يحاول التأثير في المكان حتى من خارج الحدود ، وكان دأماً يقال أن الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو ومنظمات عالمية أخرى كانت تسعى قبل تغيير النظام الى إعادة المكان الى سابق عصره ، ولكنها اليوم لاتفعل شيئاً سوى بعض الخطوات الصغيرة على شكل مؤتمر سنوي او نداء او خطط مستقبلية ، وربما وزارة الموارد المائية وحدها من يتحمل **العيب** الأكبر في محاولتها لأعمار المكان وتطويره ، لكنها ايضا تعمل في حدود امكانية موازنة خطة اعمار الأهوار وهذه الموازنة معرضة للكثير من ضغوط الفساد الإداري وضعف كفاءة المقاول والمنفذ والضغوط الأخرى التي تتعرض لها من جهات حزبية وعشائرية وغيرها وكنت في أكثر من مناسبة قد تحدثت وحاورت السيد وزير الموارد المائية في هذا الجانب وشاهدت عن قرب مشاريعه وخططه ومنجزه ، ولكني أيضاً لمست الى جانب الحرص الكبير من الرجل أن روح التنفيذ عند من تحال اليهم تلك المشاريع والرؤى لتنفيذ يقعون في خاتمة بعض بيروقراطية ومزاج ونفسية **المستشارين** عندما شاهدت في واحدة من هذه المفاصل طبيعة تعامل احدهم ، وهو يتصرف على هذا النحو مستنداً الى عصبية القومية والحزبية وغير ذلك من امور كنت اعتقد ومازلت انها **سبب** في التأخير للكثير من المشاريع والطموحات التي يسعى اليها الوزير ، ثم هناك عامل آخر ساهم في تعطيل الكثير من المشاريع التنموية لعالم الأهوار هو انخفاض وقلّة مناسب المياه القادمة من أعلى النهرين حيث ينبع النهران من تركيا ويمر احدهما بالاراضي السورية وكلتا الدولتين اقامت السدود والخزانات لتطوير بنيتها الزراعية او استخدامها كورقة ضغط مما ادى الى ظهور مصطلح حرب المياه ، وعدت هذه الحرب أفسى وأكثر تأثيراً من العمليات العسكرية ومن نتائجها تعطيش المكان وزيادة رقعة المناطق المجففة وموت الثروة السمكية والزراعية وظهور الكثير من الأمراض الجديدة والغريبة على قطعان الجاموس والماشية والطيور ايضا ، إضافة الى أن ضحالة المياه المستخدمة في الشرب ساهمت بانتشار الأمراض بين سكان المنطقة ومنها الكوليرا والتيفونيد وامراض هضمية أخرى ساعدها في ذلك قلّة مليار دولار 75 الخدمات الصحية والمتابعة في بلد وصلت ميزانيته بصورتها الانفجارية الى

أذن نحن نتحدث عن وهم فردوس عندما نريد ان نظهر للعالم جمال بينتنا وسحرها وأصولها التاريخية ، ويبدو إن هذا العالم مبتلى بكل شيء على مستوى الطبيعة والإنسان حيث لا يتجزأ الاستلاب هنا ، فما يصيب الطبيعة يصيب الإنسان وما يصيب الإنسان يصيب الطبيعة لأن ثنائية التعايش قائمة بين الإنسان وطبيعته منذ الأزل ، ولهذا أبعاد عن اهل الأهوار عن بينتهم قد يعني إبادة او انتحار ، وعلى مدى عقود كان سكان هذه المناطق يظهرون للغازي والمحتل عناداً في المقاومة ، وكان الغزاة يولون هذا المكان عناية الدهشة وبيعتون مستشرقهم وضباطهم الأشداء لمعرفة المكان وطبيعته ليسهل السيطرة عليه ، لهذا نرى أن الأجانب والغرباء من كتبوا عن المكان (العودة الى الأهوار) وخصوصيته هم أكثر وأهم من الكتاب العراقيين الذين تناولوا الموضوعه نفسها ، وكتابي لماكس كالفن و**ثيسكر** دليل على هذا ، فالكاتبان صورة حية لوقائع الحياة ومشاهدات صادقة عن (المعدان) و عالم يصفه ماكس كالفن في مقدمة كتابه بأنه يمتلك ارتناً حضارياً أصيلاً ورائداً ، وإن المكان بخصوصيته وطبيعته الساحرة يمتلك الحق ليسكن ذاكرة العراقيين وهي تفترضه واحداً من أمكنة الفردوس التي تخيلها البشر اقترحوها أو تلك التي كتبوا أمكنتها والسعي لها في قصصهم وأساطيرهم ، فيما كتبت المستشرقة البريطانية اللبدي دورا عن المكان من خلال حياة طائفة الصابنة المندانيين ، وفي أول محاضرتها عن المندانيين والأمكنة التي يتواجدون فيها والتي ألقتها في المعهد الآسيوي العالمي في لندن تحدثت دورا عن الأهوار واعتبرتها واحة لجنانن ضمت بين ثناياها الكثير من الاعراق والديانات والأصول ، وقالت إن هذا المكان كان في نظر الصابنة المندانيين المكان الأنسب لممارسة طقوسهم الدينية والدينيوية حيث الماء الجاري الذي لا يمكن إجراء التعميد بدونه ، وحيث القصب والطيور والأسماك ولهذه الأشياء أهمية كبيرة في الطقوس الدينية ، ويعتقد المندانيون أنهم من اقدم المذاهب ثم العصور التي تلتهم ، ولم (عليهم السلام) والأعراف التي سكنت المكان وهم كانوا مع آدم ونوح وإبراهيم يزل هؤلاء الى اليوم يحتفظون بما ورثوه وتعلموه من أجدادهم الأوائل في ممارسة طقوسهم وعاداتهم ، وظلوا .ومنذ آلاف السنين يحتفظون بخصائصهم الاجتماعية والروحية في ترابط تاريخي نادر وأصيل

كان المندانيون الأوائل الذين سكنوا بطانح أهوار العراق وعلى ضفاف دجلة والفرات قد نشأوا أصلاً في المناطق الجنوبية من بلاد فارس وبالضبط في سفوح جبال دهلران المقابلة لمنطقة الطيب قرب الحدود الشرقية للعراق مع بلاد فارس ، وكان هذا الامتداد يمثل تضاريسياً العمق المائي لمناطق الأهوار العراقية حيث يمتد هذا العمق مع فيضان نهر الكارون القادم من المرتفعات الإيرانية وليشكل هذا الامتداد مسطحات أهوار الأهواز أو ما يسمى الذي يعتقد أنه واحد من بوابات النزوح المنداني القديم نحو عمق البطانح العراقية فسكنوا (هور الحويزة) اليوم أولاً أهوار العمارة الشمالية في الكحلاء وقلعة صالح ويمرور الأزمنة واصلوا نزوحهم إلى العمق ليصلوا أهوار البصرة وسوق الشيوخ في الناصرية حيث كان لديهم في القرن التاسع عشر واحدة من اكبر المحلات السكنية في

التي نشأ فيها طور غنائي مشهور هو طور (الصبي) ، والآه والونين القادم من (محلة الصابنة) هذه المدينة ذلك الطور المبني أساساً على الشكوى والتضرع يمثل امتداداً تاريخياً وأثرياً واجتماعياً لتلك الآه التي كان السومري يطلقها بحثاً عن رفاهية حياته وفردوسه المفقود الكثير من (الكنزاً ربا) في الكتب المندائية المقدسة التي حفظها المندائيون **بأناة** وحرص وأهمها كتابهم المقدس الآيات التي تظهر بعضاً من صور ومناخات هذا الفردوس المقرب للمندائي من خلال ملائكة النور والتسبيح ، وكذا كانت ألواح سومر المكتشفة في الكثير من المناطق الأثرية في الأهوار تتحدث بذات المعنى عن ذلك المكان ، أو ما يسمى تل حفيظ المنسوجة حوله الكثير من (حفيظ) وربما المتداول من الأساطير الحالية حول أيشان الحكايات والعجائب والقدرة الخارقة للمكان ومن يحرسه من جن ووحوش غريبة الأشكال والمنطقة المغناطيسية التي حوله كما في نظرية مثلث برمودا ، حيث يعتقد أن في هذا المكان يوجد الكثير من الكنوز الأثرية التي هي أحمال من الذهب والجواهر، والنور القوي بسطوعه المخيف يمثل واحدة من أخيلة التصور عن هذه الجنة ولكن. المعتقدة والفردوس الخيالي الذي دونه الإنسان في ألواح خياله وظل متوارثاً ومعتقداً فيه حتى يومنا هذا الحقيقة العلمية المطلقة أن لاشيء مثل هذا ، وما تخيله الإنسان عن هذا الفردوس ليس سوى صور لحلم يتمناه ويريده ، وانعكاساً لكل تلك اللحظات القلقة وما ورثه من النظم الإقطاعية والملوكية وحروبها ، ظل ذلك الفردوس الملاذ الوحيد والأمن والذي بناه الإنسان في خياله السري وليس العلني إذ كان يخشى ليجاهر برغبته في رغبته لامتلاك الفردوس الذي كان حكراً للآلهة والملوك والكهان والطبقة الراقية

إذن المكان تخيل الفردوس بعدة صور نظراً لتباين واستيطان الثقافات التي عاشت في المكان من أزمئة سومر وحتى الثقافة العربية الإسلامية التي مازالت قائمة الى اليوم ، فلكل ديانة وثقافة صورة متخيلة آتية من تعاليم الكتب وآداب تلك الديانة ، ولكنها قد تلتقي في ذاكرة واحدة وهي **إن** أبناء الأهوار كانوا يعتقدون جازمين أن الفردوس يقع في أو بالقرب من بطانهم ، وربما جعلوه أبعد كي يكون السعي إليه جزءاً من مهمة بطولية يستحق من أجلها الحصول على هذا المكان الخالد كما في أسطورة جلجامش وقصص الخليقة الأولى وبقية الملاحم والأساطير العراقية

اليوم ومع تراكم الأزمنة وظهور الفكرة العلمية وسيطرتها على العقل البشري ، بدأ واضحاً إن كل ما يتخيله الإنسان كان في أغلبه ضرباً من الخيال وخاصة في افتراضه لتلك الأمكنة ومواقعها على الأرض ، فهي لم تكن موجودة أصلاً سوى في النصوص المقدسة للكتب السماوية ، وهذا ما اعتقده الإنسان العراقي وأمن فيه في مراحل متقدمة من عصوره عند بعث الرسل والأنبياء ، ولم يعد اليوم ينظر الى الأهوار كما كان يتخيله أجدادنا وهم لا يلامون على أخيلتهم الجميلة وذلك لأن جمال المكان وسحره وتأثيره كان يمنح الكثير من التصورات والافتراضات التي يصنعها المكان في الخيال ويحاول الإنسان من خلاله التخلص من بؤسه وضعفه ووضعها الطبقي البانس

وعليه فأن صناعة جديدة للفردوس ينبغي أن يكون بصورته الأرضية والواقعية التي يمكنها أن تعيد لأبناء الأهوار ذات المشاهد القديمة من ذلك الخيال الخصب والذي يصور المكان بفنتازيا مكوناته الجميلة والخالدة وهذا الأهوار فردوسنا الأرضي المفقود (قد يتحقق في عبارة واحدة يتمسك فيها الجميع دولة ومؤسسات ومواطنين)..(فانعمل جميعاً لعودة ذلك الخيال الى سابق من خلال العمل والتطوير وشحن الهمم

2008 تشرين الثاني 8 زولنكن في

## الفصل الثاني ..ومعدانها أجداد هيرقليطس ..مديح إلى مدينة العمارة

ومالك المطلبي ، وجمعة ..ومسعود العمارتلي ..إلى فلاسفة القرن الواحد والعشرين جبار عبد الله الجوبيراي ( وقاسم مُشكل إن كان حياً يرزق...اللامي ، ونعمة مطر

تقع العمارة في الطرف القصي من جنوب شرق كوكب عطارد، وتحيطها مدن غمرت بالماء والقصب وتواريخ ، حلم مرة الملك المقدوني الإسكندر أن يدك غرورها بسنابك خيله ومنها (ميسان )مملكة سومرية قديمة تسمى يستطيع أن يكسر جيوش كورش فارس ،لكن المنية مسكته من رقبتة في بابل ،وظل قادته من بعده يحملون بميسان ، لكنها أبت أن تكون كما ثمرة الكمثرى في فم مشتبهيا ، وكذا هي منذ أن خلقها الله وحتى زمن المجالس المحلية ويافطات الأحزاب الألف ، ومن ذلك التاريخ البعيد للملك المقدوني ما تركته حملة واحد من قادة جيشه قبل الميلاد والذي سجل فيها مشاهدته وإعجابه 325في حملته إلى تلك المناطق عام (نيرخس )البحري المسمى بصلابة سكان تلك المناطق في مقاومة الغزو الأجنبي ،وحتما عرب الأهوار من سكان تلك البطائح هم من أوقفوا ..حماس الاسكندر في النزول في حملته إلى جنوب بابل ، فهو حتما كان يحلم بضم مواطن الآلهة الأولى إلى ملكه كم 160ميلادي ، وتتشابه في الولادة مع مدينة الناصرية 1860بدت المدينة الحالية كمركز حضاري في عام في مقاربة زمن تأسيسهما والسبب الذي دفع العثمانيون إلى بنائهما ، ودانما هو الخوف من جنوب غربي العمارة ثورة العشائر العربية التي كانت تسكن هذه الأمكنة ، فبنيت مدينة العمارة لسبب هو أن تكون مقرا للقوات العثمانية أما سبب تسميتها العمارة فيعود إلى قبيلة العمارات التي وللسيطرة على تمرد وغضب عشائر بني لام وآل بو محمد وليس كما بقية مدن العراق الناشئة وسرعة قيام الأنظمة المدنية المتحضرة وبسبب التكوين .كانت تسكن المنطقة 1958العشائري الصارم لهذه المناطق ظلت العمارة خاضعة إلى تأثير الإقطاع وهيمنة مشايخ العشائر إلى عام تموز التي جاءت بقانون الإصلاح الزراعي الذي جمد واخضع سطوة الإقطاع وهيمنته الاجتماعية 14وقيام ثورة والاقتصادية على سكان تلك المناطق

أعطت العمارة من جسدها مالم تعطه أي امرأة من رحمها في مواكب صناعة تواريخ المكان ، فكان شهادتها وجنودها ومبدعوها لا يهجعون لخوف اللحظة الصعبة عندما تكون هناك حرب أو كارثة طبيعية أو أي هاجس آخر لسكان (الخزيط )، كما كان الجوع يصيبها في عهودها القديمة فتأكل من لب القصب ودموع السمك الناحل وتطبخ طفولتها ثم تتجاوز أزمتها لتعود مدينة واقفة ممتلئة الأثداء بحليب الصبر والأساطير وتواريخ الكلام الجميل لتلك الأسلاف المؤطرة بالزمن الحقيقي والأصيل لتلك المستعمرات المانية التي احتضن فيها المعدان خصوصية شعب يفكر بهاجس تسجله النظرة القدرية التي تصبغ ما تحت الجفن ليكتب وليفرد ثيكرز عنهم يوم عاش في أهوار هؤلاء القوم من الأصالة بحيث يفوق قدمهم حتى الشعوب التي سكنت الأمريكيتين )العمارة كتابه المهم المعدان ..(قبل اكتشافها

لم يسكن المعدان مدينة العمارة ، بل أحاطوها بمدنهم المانية التي صنعوها من القصب لتعوم على الماء كما يعوم القمر المكتمل في السماء ، ولم يخضعوا لمغرياتها الساحرة ويهجعوا إليها في سمر أو سكن ، ويأتون إليها فقط حين يشح السكر والدقيق ومراجعة الطبيب وغير ذلك فهم إلى زمن ليس ببعيد يكرهون حتى **دفاتر النفوس و** الجنسية والجيش ، ويلجؤون إلى الجنسية فقط عندما تملؤهم رغبة التعلم لشعورهم البعيد انهم **وريشو** ألواح الكتابة وذلك المجد الغابر **الذي سطرته** سلالات سومر واكد ولكش ولارسا ومملكة ميسان القديمة التي لم يُحفر في أطلال حلمها لحد الساعة وخاصة في الطيب وجلات والشيب والجزر التي تصعد على صدر الماء في مناطق عديدة ويعتقد أنها مسكونة بالجن والحيوانات الغريبة والتي تحرس كنوزا ما ، وهي ليست سوى أمكنة أثرية لتلك المملكة القديمة التي صنعت مجدها وامتدت إلى أمكنة بعيدة إلى شمال دجلة ،وكانت حارسة أمينة لبقية مدن العراق عندما فعندما احترقت أور على أيديهم في زمن الملك أبي - .كان العيلاميون يفكرون بالتهام **مدن** عراقية لملكهم الكبير سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة ، حملوا معهم نثار **إله القمر** الذي كان اله مدينة اور وحارسها الذي لا يعرف أخذوه إلى مدينة سوسة عاصمتهم ليعبدوه بدلا من السومريين فكان إن مر .سبب تخليه عن مدينته في هذه المحنة

موكبه المحمول على كل بطائح ميسان التي ذرفت دموع الحزن على رحيل آلهة اور ، ويقال إن الميسانيين اعترضوا القافلة في أكثر من مرة إلا أن العلاميين كان لديهم جيش جرار من الصعب هزيمته ، وبرحيل نثار إلى سوسة انتهت آخر أزمئة عبادة هذا الإله في الجنوب العراقي لتبدأ عبادة اله آخر غيره مثل انو وانكي وابسو ومردوخ وانانا ، وكانت لبطائح ميسان حصّة في عبادة هذه القوى التي سخرها العراقيون للسيطرة على هاجسهم الروحي القلق بسبب ما يسببه الماء والطبيعة من تأثير على البيئة والمكان فظلت مدن ميسان كما مدن الجنوب العراقي الأخرى تعيش هاجس الماء ومنها العمارة التي لم تشرب من مياه الأهوار كما غالبية مدن ميسان ، فقد كانت تروي عطشها من دجلة الذي يشق خاصرتها بوجع العشق والذكريات واراكيل ليال الصيف المستنقلة بسعف النخيل وهو **كنحاة اللغة** يصحح الأغلاط الإملانية في قصائد العشاق وخواطر مراهقي المدينة وحنكة الشيوخ وحكمتهم وهم يسردون وقائع أزمئة المدينة التي كان العراق يتطبب بهوانها ضد كل الأمراض التي تضرب الصدر والجهاز التنفسي

ففي لحظة الوصول إليها يبدأ إغراء الاكتشاف يصيب الزائرين بدهشة انتظار ما بعد هذه المدينة حيث ممالك القصب الصغيرة وحياتها المميزة ، فتكون المدينة نقطة الوثوب إلى الضوء الأخضر المصنوع من مرني امتزاج الماء بالقصب والنخل بلهجة المعدان وهم يستريحون تحت ظلاله بعد قيظ نهار يعوم فيه الإنسان مع حيواناتها لكي يوفر لها بهجة السباحة في تلك المياه الواقعة عند حدود النظر والأسطورة التي يصفها من ذات المكان عند خط حتى حزيران 1951 الشروع المكتشف والرحالة البريطاني وليفرد ثيسكر الذي عاش في الأهوار من نهاية تلك اللحظة التي يمتلكها المرء (المعدان) عندما كتب في كتابه الشهير .ولفترات امتدت لسبعة شهور أحيانا 1958 عندما تصير العمارة قريبة من ذلك المكان الماني الذي يحمل بهجة حياة أناس بسطاء وطيبين أسوء فهم وجودهم الاجتماعي بسبب عزلتهم وإصرارهم على العيش في الحياة كما يرونها ويريدونها هم لا كما تريدها الحضارة كنت أستمتع إلى الأمواج تلطم .طوال الليل كان الهواء البارد القادم من الأهوار يهب من ثغرات القصب ( :والمدينة سواد يتضح .وحين خرجت فجرأ ، رأيت صفحة المياه العظيمة ظلال أرض بعيدة .الجرف وأنا على وشك النوم للحظة أخذتني رؤيا حفيظ ، الجزيرة الأسطورية التي لن ينظر إليها أحد دون أن يفقد حواسه ، يشروق الشمس (يرسو على الضفة قريبا مني قارب رفيع أسود مشرب .بعدها عرفت أنني انظر إلى أجمات القصب العظيمة .الشيخ الذي يستخدمه في الحرب بانتظار أن يأخذني إلى الهور . (المشحوف

قبل أن تبنى القصور في مدينة اور خرج الرجال في الفجر من بيت كهذا ، دفعوا قوارب تشبه هذه ، مضوا للصيد كشفت حفريات ليوناردو وولي منازلهم القديمة ونماذج من قواربهم مدفونة عميقة تحت بقايا سومر أعمق .هناك (من دلائل الطوفان نفسها ، خمسة آلاف من التاريخ هنا ، ومع هذا لم تتغير طريقة الحياة كثيراً الملية بحليب (الفافون) وبذاكرة الماء وانتظارها لرياح المعطرة بصفانر القصب وبانعات القمر الآتيات بأواني .الجاموس واللين الرانب تقترب المدينة بثقافتها من إتقانها لحركة المتغير في كل شيء المتغير في حركة الموجة التي لا تثبت في المكان الواحد وهو ما يشمل الإنسان في رؤى :فقد كان هيرقليطس يقول إن :وكذا المدن كما اعتقدته عندما قرأت كتاب أيتاليو كالفينو مدن لامرنية .العقل ونموه منذ الولادة وحتى الكهولة .المدن تعيش في عقولنا أكثر من النساء اللاني نعشقهن بقوة

تقترب العمارة كمدينة من رؤية الفيلسوف الإغريقي فهي ملازمة لتحولات الموج منذ خليقة البدء العراقي ، هذه التحولات التي تحكي عنها **أطلال** التراب والرمل التي تحيط في المدينة والتي ظلت مهمة من قبل المؤسسات الأثرية ولم يفكر أحدهم في التنقيب الجدي عن مدن وممالك عاشت أزمنتها الحضارية منذ النشوء الأول وكانت هي الامتداد الشمالي الشرقي لحضارة سومر واكد ومصدها القوي تجاه الحملات العيلامية والفارسية التي كان يتعرض موقعاً أثريا لم **تنل** حظها الكامل من 48لها العراق منذ قديم الزمان ، ففي مدينة العمارة وحولها يوجد حوالي (حرامية الآثار) التنقيب وقد تتعرض في أحيان أخرى شأنها شأن أماكن الأثر في الجنوب العراقي إلى قرصنة واللصوص الأميون الذي يحفرون بالمعاول البدائية وبدون طرائق علمية في تلك التلال و**الأطلال** الأثرية مما يؤدي ..إلى إتلاف الكثير من الآثار الخزفية والحجرية وألواح الطين

أثر فوق أثر لتتوالى الطبقات وهي تنتظر معاول المنقبين لنكتشف العالم البعيد لمدينة كانت تأوي أحلام الجنوب رحمة (فالمؤرخ العراقي عبد الرزاق **الحسني** .الناني حتى في النفي السياسي للذين كانوا **يقاومون** الأنظمة الفاسدة الذي قضى فترة من فترات الاعتقال والسجن أيام الحكم الملكي في سجن مدينة العمارة الذي كان يعتبر واحد (الله من سجون النفي بالنسبة لمعارضى الحكم الملكي ، وتحدث في لقاء تلفزيوني عن تلك الأيام وقال أن العمارة بطيبة أهلها ونقاء سريرتهم كانوا لا يشعرون ضيوفهم حتى لو كانوا سجناء بأنهم غرباء لهذا كان العراق كله موجودا في ، كما تحدث عن طيبة ونقاء هواء العمارة وجمال (عمار تليون) قواويش السجن وكان الجميع يشعرون أنهم مناخها حتى أن الدولة في بداية حكمها الوطني أنشأت أول مشفى للأمراض الجلدية والمعوية في العراق في مدينة



## العمارة

في جلسة حميمة مع واحد من أبناء مدينة العمارة الذين أرخ لتاريخها البعيد والقريب هو السيد عبد الجبار الجوبير اوي في قاعة فندق بابل في مؤتمر الثقافة الأول بعد التغيير والذي أقامته اليونسكو بالتعاون مع وزارة كان الرجل يتحدث لي عن مدينة تتعدد فيها التكوينات والطبقات والثقافات والديانات . 2004 الثقافة العراقية عام أيضاً ولكنها تجمع كل تلك **التلاوين** في كف دجلة ، وهو يذكر إن المدينة تدين بالعرفان لوجودها الحضاري الجديد إلى الكثير من الأساتذة الأوائل من الطائفة المندانية واليهود والمسيحيين أيضاً وله مقال تاريخي يؤكد أن المرحوم يوم صار (قلعة صالح ) المنداني غضبان رومي هو أول معلم في العمارة وقد كتب في ذلك مراسيم استقبال مدينته إن أقاموا احتفالاً ضخماً كالاحتفال الذي أقاموه عندما -مسلمين ومندانين -لم يسبق لسكان قلعة صالح) معلماً توجهوا بالسفن والزوارق إلى منتصف الطريق النهري الذي يربط القلعة بالعمارة في مقاطعة المزارع الكبير داود الحميد، وذلك في انتظار ابنهم البار المعلم الجديد غضبان رومي الناشي الذي قفز من السفينة التي كانت تقله إلى الشاطئ وهو يبكي فرحاً، ويقبل أيادي الشيوخ الذين تجشمو عناء السفر من اجله ويشد بقوة على أيدي (مستقبله ويعانقهم بشوق وحرارة

وقد نشرتُ واحداً من بحوثه في هذا المجال في العدد الأول من مجلة الأهوار التي كنت أديرها وتصدر عن وزارة الموارد المائية العراقية وفيها **تسجيل** لتلك الفترة الخصبة من بداية التعليم في العمارة وكيف كان لأولئك التربويين متعددي الطوائف والاعراق الدور في إنشاء مدارس البنات والبنين ، وذكر لي إن شيوخ آل بو محمد هم أول من كسر طوق الحذر والممنوع في إدخال البنات إلى المدارس عندما سارعوا إلى تسجيل بناتهم في هذه المدارس التي بدأت بنات بعدد الأصابع واغلبهن من العوائل المندانية واليهودية والمسيحية ولكنها تطورت لتشمل بنات وان أوائل أساتذتها من الصابنة كان من مؤسسي خلايا التنظيم الشيعي في العمارة في **ثلاثينات** .المسلمين أيضاً القرن الماضي وتم اعتقال الكثير منهم ، واغلبهم من مدرسي مادة الرياضيات التي برع فيها الأساتذة اليهود وتمتاز مدينة العمارة التي شهدت مثل غيرها من مدن الجنوب العراقي بواكير التعليم إنها كانت تعطي .والصابنة أسماء مدارسها بأسم شيوخ عشانرها مثل المحمدية في مقاطعة شيخ آل بو محمد العريبي والمدرسة الفالحية في مقاطعة الشيخ فالح الصيهور وفي ريف المجر الكبير فتحت المدرسة المجيدية في مقاطعة الشيخ مجيد الخليفة فتحت المدرسة الشوانية في مقاطعة (الميمونة فيما بعد) وهم شيوخ قبيلة ابو محمد وفي ريف المجر الصغير الشيخ شواي الفهد والمدرسة السلمانية في مقاطعة الشيخ سلمان المنشد وهما شيخا آل ازيرج وفي ريف كميث ومثل هذه الظاهرة في حصر .فتحت المدرسة الحاتمية في مقاطعة الشيخ حاتم غضبان البنية شيخ بني لام المسميات لم تكن سوى في لواء العمارة فأغلب المدارس الناشئة في الجنوب العراقي كانت تسمى بأسماء ملوك العراق في العهد الوطني أو بأسماء المناطق الجغرافية التي تقع فيها فمثلا كانت الفيصلية نسبة للملك فيصل الأول .هو المسمى العام لأغلب المدارس الرائدة والتي تم تأسيسها في بداية الحكم الوطني كما كان لأبناء الطائفة المسيحية دور كبير في دفع عجلة التحضر في هذه المدينة ، أنا اكتشفت هذا في واحدة من صدف العسكرية الطويلة عندما عاشت أخيلة الأمل في رؤوس الجنود والخود أن نخرج سالمين من هذه الحرب التي لاترحم دمعة ألم وصلوات الأباء ونحيب أولئك الذين يؤلم الثلج أطراف أصابعهم فيمنعهم من تلمس خدود عشيقاتهم أو كتابة خواطر الحب أو عزف موسيقى السلام وسط أزيز الشظايا وعطاس البنادق وأوامر الرمي .القادمة من الأفواه المرتعشة لضباط الرصد

فهو على حد تعبير ديورانت في كتاب قصة الحضارة الصانع الأمهر .هناك نصف السرايا جنودها من الجنوب أولئك الذين كانت ممالك نيسان أور وشط العرب توشحهم برغبة الوجود عبر هواجس التوسل وأمنيات .للمقاتلين (العري مع الآلهة الأتني ،لهذا في الحرب كان اغلب الجنود من أهالي العمارة والناصرية والبصرة لا ينامون في إلا ومعهم خيال لواحدة تتعري بفتنة النخل والهور والأبودية لا لتصنع بهجة للحرب ومسبباتها بل (يطغاتهم لتجعلهم أحياء ومتأملين رغبة العودة لتلك القرى التي رفضت أحلام كل اكاسرة الكون وصافحت بمودة جمالها .وسحراها أبدية المكان وروحه الطقوسية المدهشة

، كان طيباً وطباخاً ماهراً ، كل أزمنتي معه من مودة التعاشر (نبيل )كان معنا في الفصل **جندي مسيحي** اسمه والصداقة والفة الربايا وتأمل النجوم في الليالي الصافية والإنصات إلى قداساته الخجولة ولهجته جعلتني انسبه إلى .فلا اسأله عن مدينته.العاصمة وبالضبط كنت أتصور انه من كراة مريم كنا نتحاور عن طبيعة البشر .ذات يوم وفي ليلة ربيعية أمطرت حواسنا بلذة رائحة الورد **الآتي** من الوادي القريب قلت له أي جهة تقصد .وتأثير المكان على هذه الطبيعة فسمعت منه أننا نتشابه في الطبيعة كوننا من جهة واحدة .فأنت من الناصرية وأنا من العمارة.الجنوب :قال .  
!..مسيحي من أهل العمارة :ملأنتي الدهشة والغرابة وقلت

عن أب وجد ،وعندما تنتهي الحرب سأصنع كل ذريتي في العمارة فهي الأصل دائما ، وهناك ليسوع قداس :قال مع القصب فعشنا معه بسلام ، فليس أجمل من أن تعيش مع شيعة الأهوار لأن سريرتهم أنقى من دمة المطر على خد الوردة

أعجبنى وصفه الشعري ، ولم أستغرب أن تسكن روح الشعر قلب مسيحي من أهل العمارة فالشعر يسكن في جسد **فتخيلت** صباحا ربيعيا هادنا تفرح فيه أجراس كنسية في العمارة وسألته إن كانوا هم من المدينة منذ أزل الحياة بقايا ما ترك المستعمر الإنكليزي في المدينة بعدما كانت مدينة العمارة منطقة امتداد و**تجحفل** لجيوشهم يوم قررت بريطانيا غزو العراق وطرده العثمانيين منها وانطلقت بحملتها من البصرة برتلين أحدهما باتجاه الناصرية والآخر باتجاه العمارة ،فرد علي نبيل انه وأجداده في العمارة أقدم من أزمنة الإنكليز ويعتقد إن عائلته سكنت العمارة منذ أواخر القرن التاسع عشر ، فأبوه ذكر له ذلك

لا أعرف أين هو الآن ، ولا اعتقد انه يسكن العمارة الآن فلقد فرقتنا نهاية الحرب ،ولكني واستذكرا لهذا المسيحي العمارتلي الطيب الذي جمعتني فيه ليالي الحنين لرقصات البط والشامات المرسومة على شكل نجوم واقمار تحت مسيحي مدينة )حنك بانعة القيصر الصباحية ، أستعيد مقالة جميلة لصديقي الشاعر الميساني جمال الهاشمي عن :ومنها قوله (أبناء الميزوبوتاميا في ميسان)والتي نشرها منذ زمن وهي بعنوان (العمارة وهل أنسى أصدقائي الكلدان في محلة التوراة وكنيسة أم الأحران من أقدم الكنائس في الجنوب وزيارتنا لها أيام القداس ونذورنا أثناء النجاح ومازلت أنا وعائلتي وكل أبناء المدينة يحضرون الأعياد الدينية و بانتظار أبنينا عماد القادم من البصرة لأقامة القداس ، ومازلت عائلة متي صليوة في العمارة أما رعد وبقيّة العوائل تسكن في تلسقف ومن العوائل التي عادت في أواخر التسعينات إلى تلسقف عائلة المرحوم ألياس نيسان كتو "حاليا (والذي أقيم له اكبر ماتم في مدينة العمارة

أما عن اليهود الذين سكنوا العمارة وربما منذ أول بابل عندما أتى بهم الملك البابلي نبوخذنصر فيتحدث الكاتب ومازلت بيوت عوائل العمارة من الطائفة الموسوية من اليهود موجودة )عنهم برغبة استذكار سريعة قوله فبيت داود كباي وبيت ساسون مشعل موجود ومازلت أتذكر أبناء تلسقف الذين عاشوا معنا أيام الابتدائية **أذكر** وهذا الكلام يؤكد على إن المدينة كانت موطننا للكثير من ( اوكين شمويل وعائلته الطيبة وبيت يوسف اوري الديانات ومنها اليهودية ، وقد تكون المدينة محطة لرحلة العزيز الكاتب ،النبي أو القديس اليهودي الذي مقامه كم من مدينة العمارة ، والمكان يحظى بتقديس المسلمين واليهود 70اليوم في الناحية المسماة باسمه على بعد على حد سواء وله مواسم للزيارة وقد كان مزارا للكثير من الرحالة العرب حيث يعتقد أن العزيز قد توفي في هذا المكان أثناء سفره بين بابل وإيران أو بعض الروايات تقول انه كان قادما من القدس لتفقد أبناء طائفته في هذه **ق:؟** ، وهذا (425- 465) (ارتحشته)النواحي ويقول المؤرخون انه توفي في عهد الملك الفارسي كورش أو المقام عشت معه في شهور الحرب عندما كان قاطعنا يسمى شرق دجلة وكنت أقرأ في ذاكرة المكان صورة رجل تورع في حلمه التوراتي واتخيل لحيته الطويلة يتدلى منها صبره وارادته وهو يقطع الطريق بين بابل والعمارة ثم يود الوصول إلى اتباعه في قرى دهلران المحاذية لمنطقة الطيب جنوب العمارة ويقال إنها أيضاً كانت موطننا أزليا لأبناء الطائفة المندائية غير أن وجهته لم تقف عند ذلك المكان بل كان يريد الوصول إلى سوسة وبعض الروايات وعلى أية .تقول انه أراد أن يتباحث مع الملك الفارسي ارتحشته حول أحوال أبناء الطائفة اليهودية في بلاد فارس ، وهو ينزل راح الطريق وتعبه عند دجلة حيث العمارة اليوم وفيها تستريح (ع) حال فانا أتصور العزيز النبي هو اجسه المتعب من تأمله السماوي ومنها ينطلق إلى البطائح **الخضر** التي من قصبها صنع نوح سفينة النجاة ..والملك كوديا بنى معبده الذي أمرته الآلهة ببنائه لحظة أطباف حلمه الشهير

إنها أنية مزخرفة بأطباف اللون .هذه المدينة الخصبية كما الأنتى التي لايمل غرامها من إنتاج الأجنة الجميلة الاجتماعي والروحي لشتى المذاهب والديانات،فهذه المدينة الوحيدة من مدن الجنوب من تضم عوائل كثيرة من ومنهم التربوي والمترجم المرحوم جلال عبد القادر (سوامرة العمارة )فيقولون (سُر من رأى )سوامرة السامرائي الذي عمل مدرسا للغة الإنكليزية في العمارة ثم أخذته السياسة إلى بغداد ليعمل **دبلا ماسيا** في سفارة العراق في موسكو وقد ترجم **كتبا** عديدة منها ما يخص الطاقة النووية صدرت عن دار المأمون للترجمة وهو **أخو** الناقد العراقي المعروف سليم عبد القادر السامرائي

تلد المدينة وجدانها من تواريخ بشرها هكذا كان هيرقليطس يفكر بالمر عندما كان اليونانيون يحاولون معرفة خيال المدن كي ينجحوا في نسج مناديل العشق للآلهة التي تصنعها أخيلة المدن وخصوصا تلك التي تقع عند ضفاف النهر أو المحيطات أو البحار

مدينة العمارة صاحبة الخيال الهيرقليطسي قفي تكوينها ، ولكن لم تكن وليدة العقل الإغريقي بل العثمانيون فكروا بصناعة مكان لخديعة المتمرد فولدت المدينة ، وكانت مدن الجوار تنظر إليها بحذر لأنها مدينة للعسكر والمدافع

ليرتدي ثوب الطين والنخل (الأوغلم) خرج من معطف الوالي والحاكم (العمارة) وثكنات التموين ، لكن المكان والأثر البعيد لمجد سيوف أناس أدركوا مع الضوء والقصب واجنحة البط حركة الماء ليجدد من ذاكرته وليصنع حضارته ، فابتعد المكان عن نياشين الترك ليدخل في طيات ضفانر بنات الأهوار ولتكتسب كل الأرض من الطيب الى القرنة اسم المدينة وليعيش هذا الوجدان بالرغم من العوز الذي لاصقه بسبب سني الإقطاع والمجاعات والكوارث ولهذا عانت المدينة من حزن الهجرة لتزحف جموع فقرائها صوب العاصمة وليؤسسا هناك واحدا من تموز 14 اكبر التجمعات الفقيرة في العاصمة وكانت في البدء بيوتاً من القصب والطين ولكنها عمرت بعد ثورة (الثورة ، صدام ، الصدر) ومر المكان بثلاثة تسميات مدينة 1958 بعض البغداديين يعتبرون مدينة الثورة مجتمعاً عمارتيا مصغراً **برغم أن** سكان هذه المدينة الفقيرة أتوا من ريف الجنوب كله ولكن الغالبية هم من أهل العمارة أولئك الفقراء الفلاحون الذين أصابهم قحط **وفيضانات خمسينات القرن الماضي**

ظلت عادات العمارة ولهجتها وثقافتها تسيطر على اغلب قطاعات المدينة ومسميات أسواقها وشوارعها ، وبقي حنين الناس فيها وروابطهم تمد حبال المودة الى ذلك المكان الجنوبي الساكن لضفاف دجلة والذي كان الإنكليز عندما صدمهم سحر المكان وعذوبة أجوائه فكتبوا في (عاد) انهم دخلوا جنة 1916 يوم دخولهم إليها عام دفاترهم خواطر جميلة عن غرابية ما شاهدوا من فطرة الناس وجمال النساء وأفياء نخل ذاقوا فيه حلاوة والطعم انه تفاجأ في التركيب الاجتماعية المتعددة للمدينة وان أهلها: اللذيذ للبن الرائب ، فكتب أحد ضباط الحملة قائلاً من ديانات عديدة عكس ما كنا نعتقد انهم مسلمون فقط ويجهلون أي شيء عن الحضارة والروحانيات ولكننا اكتشفنا إن المكان ليس تجمعاً سكانياً بناه الأتراك للضرورة العسكرية ، فالمكان هو بقايا آثار عريقة من آثار بلاد الرافدين الساحرة

تضج المدينة بغرائب سحرها ، وللغناء فيها طعم العسل الذي يقطر من شفتي فم المدينة وهي تمد نعاس ليالها على أرائك النهر وليس للعمارة إن تكون مدينة تتحدى أزمنة القساة والجوع وضريبة المذهب والطبيعة المجتمعية المميزة في صوت اللهجة والتقاليد ، فهاهو الموال والأبودية يوشم خد المدينة بأساطير النغم ، وربما مسعود العمارتلي وقصته وشهرته تمثل إحدى غرائب ودهشة وجود المدينة في بحثها الأبدي عن أزل الموسيقى الذي يعود بجذوره الى قيثار الذهب التي وجدها متناثرة بين حناجر الألواح وجدران المعابد ومسلات الملوك يعرفها الجميع وظهرت في مسلسل تلفزيوني جسد دور مسعود فيه (الأنثى ، الذكر) وقصة الأسطورة الغنائية الفنان سعدون جابر

لكن أسطورة الحكاية والنغم تخلقان خصوصية ليس لمسعود وحده بل للمدينة ، فلكي تكون المدن خالدة عليها أن تنتج المطربين الخالدين ، ولأن الجنوب في كل الأرض منتج أزلي للغناء فلا بد أن تحمل كل مدينة خصوصية مع واحدة من حناجرها الطروبة ، وفي الجنوب السومري امتلكت الناصرية والعمارة بعض هذه الخصوصية المميزة داخل (دون غيرها من مدن الجنوب من خلال إنتاج تلك الأصوات الخالدة التي ظهرت في مرحلة طربية واحدة ... حسن ، حضيري أبو عزيز ، مسعود العمارتلي ، ناصر حكيم وغيرهم شكلت حجرة مسعود صورة الهاجس الخيالي لذات المدينة من خلال أطروحته الغنائية المتميزة التي تحدث ظروفها وتقاليد اجتماعية قاهرة

ارتدت مسعود ملابس الرجل فلم ينتبه الناس الى متغير الشكل بل كان الانتباه مأخوذاً بسحر الصوت الذي جال (المسترجل) وقد قربت مجالس الشيوخ والأنس هذا الصوت. في نواحي العمارة أتيا من مهد الولادة في الكحلاء وكان صوته يضح بعذوبة المكان وخصوصيته واقترابه من حياة الناس وطبائعهم وهو يشد في بحة الحزن وجدان لوعته الذاتية فيما اختاره ليترك أنوثة الضفانر وبروز النهدين ليرتدي العقل ويقف على المسرح في دافع مفترض إن الرجولة قد تسمح له بتحقيق طموحه في الشهرة والانتشار والوقوف على مسارح ملاهي ومقاهي العاصمة وبالفعل دفعته شهرته واعتراف متذوقي الطرب الأصيل بصوته الى الوقوف جنباً الى جنب مع المطرب الشهير حضيري أبو عزيز و **غنيا** معا في حفلات في بغداد وحلب وغيرهما من المدن وسجلا **لشركة اسطوانات جقمقجي** الكثير من الأغنيات

يذكر كالفينو في صناعة مجد المدن إن المدن تحيا ببهاء صوت منشديها ، فهم وحدهم من يصنعون للآلهة والأباطرة وقادة الجند مدناً ساحرة تعيش مع نشوة شعبيها النادر

ربما إنسان المدن الجنوب من الندرة بأنه يخضع لحسية الصوت قبل أي حس آخر لهذا كان الغناء يمثل الوجدان فكان مسعود يجسد تلك العميق الذي يفسر الحياة كما يتمناها الفقراء من الصيادين والمزارعين واصحاب الحرف الروى في إبداعه ونضوجه الغنائي المبكر وفوقها كان يلحن أغانيه بنفسه من خلال الدندنة والأذن الموسيقية الإبداع الحقيقي تصنعه الفطرة الحقيقية ، لهذا خرجت :دون أن يكون عازفاً أو أكاديمياً ، وكانه عند مقولة دافنشي

من حنجرته ملحنة ومدورته أغانيه الخالدة التي تنقش كلماتها وأنغامها في ذاكرة الشعب كما نقشت ألواح سومر  
سوده (كلماتها وأنغام قيثارات أميراتها قبل مسعودة بألاف السنين فجاءت أغانيه عبقة وحسية وطروبة كما في  
براضه أمشي براضه )و (كصة المودة )و (بوية محمد )و (خدري الجاي خدري )و (ذبي العباية )و (شلهاني  
)..

في مزج إحساس المدينة بشخصية المطرب وصوته نحصل على طبيعة متجانسة وتوفيقية بين الإنسان وبينته ،  
وربما ما فعله مسعود من تغيير جنسه هو تعامل ودي مع الطبيعة لهذا لم يعان من المتغير في مجتمع من الصعب  
كبح جماحه وتعديل نظرتة وربما الفضل في ذلك يعود الى جمالية صوت المطرب وسحره وتأثيره على سامعيه  
لينسى الناس تبعية ما فعله ولينطلق في جسد المدينة ومسمعا صوتا يمتلك الحظوة والقيمة الطربية وليصبح  
يومه موعدا لمجالس لأكثر من وجيه وشيخ عشيرة وأريكة مقهى

هذا المؤثر المهيمن على سطوة التقاليد لم يقف عند حدود ومساحة المدينة ، فما يزرعه الجنوب تحصده العواصم  
دائما ، فكان أن ذهب مسعود الى بغداد وليمثل هناك ظاهرة حسية ووجدانية في نقل إحساس مدينة حمل اسمها  
، لتكون المدينة أول من تنتمي الى (العمارتلي )كلقب فكان النشوة في الصوت يمازج النشوة في سماع الأشم  
اللقب الفني المسموع ومعه المطرب عبد الأمير الطوريجاي الذي ينتمي الى بلدة طويريج قبل أن يشاع أسماء  
الدرجي ، والبغدادى والبصري والناصرى والحلي )المدن المتصقة في مطربها كما

لقد كان يقولون مهما فعلت العواصم **بغربائها** فإن أعناقهم **مشرنبات** الى بيت الولادة ،ولهذا لم **تؤثر** العاصمة في  
مسعود ولم تعطه الشهرة غرور التبجح والبحث عن سكن حضاري في واحد من أحيائها ،وربما ظل الشعور  
بازدواجية الجنس ملازما له وظلت الكثير من الإشاعات والتعميزات تلاحق نظرات سامعيه حتى وهم يصفقون في  
نشوة صوته الذي يصنع الموالم المحمداوي بحرفة ماهرة وأخاذة ،واعتقد إن مسعود كان يعي هذا جيدا فأراد  
إثبات شيئا من فتنة الصوت والرجولة فعمد راجعا الى مدينته الكحلاء وهناك تزوج من واحدة ربما كانت مسحورة  
في صوته لتحديث تداعيات كثيرة ظلت مستورة ولم يكشف عنها ،ولكن التاريخ دانما يلصق في الكبار النهائية  
المأساوية ، فبينتهي هذا الصوت الخالد بصورتين من النهائية واحدة تقول إن مسعود مات مسموما على يد زوجته  
بعد أن كشف أمره وشاع ارتداه تلك الازدواجية في الجنس وكان الزوجة حملت وزر هذا الأمر الذي قد يعتبر  
عارا في بعض وجهات النظر الاجتماعية فدمت له السم ،ويقال انه مات متأثرا في مرض التدرن الرنوي وذلك  
1944عام

ومهما يكن ففي مجتمع عشائري مثل الكحلاء لم يكن توقع هكذا ردود فعل مفاجئة حتى مع مبدع اشتهر على  
**صعيد** العراق كله ،**لان** الوضع الجسماني للمطرب ، وضع حساس وخرج وليمكن أن يتناسى حتى لو كان صاحبه  
شكلت ظاهرة فنية متميزة في ثلاثينات وأربعينات القرن الماضي (مسعودة )غير أن مسعود العمارتلي أو ملكاً  
محمد القبنجي ،داخل حسن ، )،وربما يكون هو واحدا من الريادات الغناء العراقي يوم تأسيس الإذاعة العراقية  
(حضيرى أبو عزيز ،مسعود العمارتلي

سجلت تلك الدراما الحياتية والوجدانية تأثرا في الضمير الحي لدى الكثير من أبناء المدينة **وإن** أحداً لم يفكر وقتها  
ليفسر ويفور في السيرة الذاتية والفنية لهذا المطرب ، لكن مقالة للروائي العراقي فيصل عبد الحسن وهو يتابع  
كتاب في )مختارات شعرية للشاعر العراقي الكبير محمد مهدي الجواهري والتي صدرت ضمن مشروع اليونسكو  
قد تنبته الى هذا الصدى الذي تركه المطرب في الوجدان الجمعي لدى الطبقة المثقفة والمتحضرة في (جريدة  
ذلك الوقت عندما أشار الكاتب فيصل عبد الحسن الى **ظنته** أن الجواهري كان يقصد تغزلا المطربة مسعود  
التي وضع -عبدة -ومن قصائد المختارات ))العمارتلي في واحدة من قصائده قول الروائي فيصل عبد الحسن  
وربما هي مطربة الجنوب -معسولة الشنب -فيها أجمل عبارات الغزل بشخص مطربة سوداء ، نضيدة الأسنان  
( -مسعود العمارتلي -العراقي المعروفة بأسم رجل هو

:ومن بعض أبيات القصيدة قول الجواهري

أعبدة يا أبنة الطرب ويا معسولة الشنب

ويا معزولة النصفى ن مبتعد ، ومقرب

كرج الحانك النول بنسج المطرف القشب

...ويا مهزوزة الخطوا ت لم تخطى ولم تصب

لم يكن (مسعوده) هو النتاج الخالد لهذه المدينة والذين جعلوا من العمارة اسما ملتصقا مع الفنان أينما حل  
وارتحل بل أن العمارة ظلت ملاصقة للكثير من الحناجر التي شاع الولع بأدائها في زمن انتشار الكاسيت وظاهرة  
التسجيلات التي عاشت عصرها الذهبي في زمن ظهور سلمان المنكوب وعبادي العماري وجلوب ونسيم عودة  
وغيرهم ، وحتما هؤلاء هم أحفاد بررة لذلك الصوت الخالد الذي أشاع مسحة الحزن والعشق والحنين واللوعة

والتي مثلها جيدا صوت المطرب سلمان المنكوب ، وكانت إذاعة القوات المسلحة في بداية سبعينات القرن الماضي تذبّع أغنيات هذا المطرب لأكثر من مرة في اليوم فلقد كان له التأثير الساحر والإيقاع الذي يبعد ( هوم سك) العزلة والخوف من شظايا الحرب عن الكثير من أبناء الجنوب الذين جندتهم الدولة في حرب الشمال والتي التصقت فيها تلك الهوسمة الشهيرة لواحدة من الأمهات العماريات **اللائي** تكلن (حرب برزان )المسماة بأبنائهن في تلك الحرب بقولها يوم جلب النعش إليها قادما من ربايا الثلج الباردة الى **دفاء** القصب والماء في والطركاة تعني في لهجة الجنوب المصيبة (**بيس** بأهل العمارة ..طركاة اللفت برزان )العمارة قولها مصيبة وصاعقة ضربت الملا مصطفى البرزاني لأنه )وكلمت **بيس** تعني أوغل ، والمعنى العام هو ..والصاعقة (أوغل قتلاً بأهل العمارة من الجنود

وكان الجنود يأتون بأطياف مدينتهم وظلال النخل وآماسي كورنيش (العمارتلية )يمثل الغناء بعض هوى الروح دجلة من خلال طور المحمداوي الذي يجلب لهم كل صدى يتمنونه بدءا من الأمهات وانتهاء بحبيبات عيونهن أوسع من عيون جيايد براري الشيب والطيب وجلات وكमित وعلي الشرقي والغربي ، وأرق من ريش البط الملون بتفاصيل **مشاتي** الأهوار الدافئة ،البط الصيني والاسكندنافي والكوري، وذكر بعض الجنود إن بطا كنديا كان يزور شتاء العمارة

بين البط وأسطورة مسعود أصنع وجودا مفترضا لمدينة تصنع أثرها من دلال الأزمنة وتوارىخ الجوع والعشق والصلوات المندائية لأولئك **الروحانيين** الذين كانوا **يجوبون** القرى والمدن ليكشفوا طالع الحلم وغسل الاجفان الحيرى بضوء النجوم

أعترف أنني لم اعرف العمارة في صبي قراءة المراهقة إلا من خلال واحد من **عشاقها** الذين يؤسطرون مودتهم بأرغفة القصة ،وفيها يتخلصون من ألم الجوع والنفي والسجن السياسي ،عشقها لتكون حاضرة معه في وجدان الكلمة والحلم وليصنع منها بهاء عمره واغترابه وحنينه الذي يشبه حنين السمك الى وسادة الطين هروبا من شبكة الصياد

مع قصص جمعة اللامي عرفت أن للعمارة بابا كبيرا صوب دلمون وأنها أفق مؤطر بأساور القصب ودخان مواقد هذا المبدع الميساني الذي يحمل في وجدانه صورة المدينة كما .القرى وأصيل الدمعة النازل على سعال الفقراء يتخيلها اله غاب في عتمة الشوق لمدن صنعها من طين قبلاته و**نسيها** بسبب كأس خمر في ليلة مودة مع جارية تركها جلجامش في محطة من محطات دروبه التي يجوبها بحثا عن الخلود

لهذا كانت قصص جمعة كشاف لخرائط مدين لم يلفها نسيان قبعات الحاكم والشرطي والسركال فقط ،بل لفها حزنها الأبدى وهي تصنع حقيقتها الخالدة لتكون أنثى جميلة من إناث الماء والنخل وسعادة الجواميس لقد كتب جمعة اللامي برقة الذي يتوارث بهجته من روح المدينة المشتعلة في طفولة **أبنائها** فوانيس ملونة ،لهذا فقد أغرتني قصصه وأشياؤه ورحت اذهب معها لتخيل مدينة لاتشبهه اور فقط بل تشبه دلمون أيضاً

النجوم )أولئك الذين يموتون كل يوم ويولدون كل يوم ، مجدهم أنهم صناع مدهشون لصناعة الأشياء البراقة ،أساور الفضة ،وشم الخد شظية الحرب وقصيدة الشعر ، هم وحدهم من يحق أن يطلق عليهم لقب أمراء الضوء ،الذين يسكون أجفان الماء بأصابع الرعشة وزعانف السمكة وحركة سعف النخل ،هي ذاتها من تغفو على ظلها المدينة التي تضخ للعالم البيارق وبيوت الطين وعطاس البط ،العمارة تلك الحافلة التي لاتمل من الدوران حول

مركز الكون لتصنع لعشاقها المنافي الخالدة ،أيما **يكونون** فهم لها ،وأيما تكون فهي لهم ،عاشقة يغرفهم عريها ببهاء النوم في سكرة دجلة ليترنج العمر فيهم ويدخرون لأمنيات اللغة البهيجة التي يطلقها بحدائة الكلام عند ويلبسها .الناقد والشاعر مالك المطلبي وهو يفك طلاسم مشفرته الأزلية في البحث عن الداخلى التي يرى ولا يرى ثوب الخجل القروي في الشعر الذي يطلقه عيسى حسن الياسري وهو يمد أسارير شعره السبعيني أيام دواوين

وزارة الثقافة والأعلام عندما كنا نقرأ فيها ضمير الولد القروي الأسمر وهو يشد عاطفة الجنوب لطوف الطين بأذخة وأميرة وصانعة للخبز والدموع .وشتلات الرز ونحبيب موتى من يرحلون بصمت الفلاسفة والمكتشفين فيما تأخذنا كلمات الشاعر الشعبي مطر نعمة العلاف الى عذوبة الحالم بحلمه وهو يدق هيجان الشعر .والشهقات في جسد الأغنية والأوبريت والدرامي الجميل

.....ولها الحلم كله ،ولها الصلوات .لها المديح كله .تعيش حيث يعيش الوجدان وحيث تعيش الآلهة

## الفصل الثالث... صابئة حران وصابئة المعدان وصابئة هذا الزمان

لقد حان أجلي وألتمس الذهاب ، ويخيفني الرحيل ، ولا أعلم كيف سيكون طريقي ؛فليس هناك أحد ((  
(...غادر ثم عاد كي أسأله عن الطريق ، وكيف يكون "كان أم مسينا" تقيا

سام بن نوح – كتاب تعاليم ومواعظ النبي يحيى ع

والتي يشير (عندما يتحول الدين الى قصيدة حب )في مقالة للباحث السوري الدكتور احمد **عسيلي** والموسومة 2007فيها على أهمية ما كتبه في كتابي عن تاريخ و غنوص الديانة المندائية والصادر عن دار نينوى في دمشق والذي نفذت طبعته الأولى من الأسواق السورية ، (الديانة المندائية من آدم ع حتى قراءة الخامنبي )والموسوم وكذلك **نفدت** كل النسخ التي شاركت فيها الدار في معرض الشارقة الدولي للكتاب، كان تأكيد الباحث على أن الديانة المندائية ديانة سورية وهي من اقدم ديانات المنطقة على أساس أن المندانيين الأوائل هم من سكن حران الواقعة في أعالي الفرات حيث سوريا اليوم ، وطالب الباحث من الدولة السورية بالاعتناء بتراث هذه الديانة والالتفات إليها وتأسيس مركز خاص بدراساتها وفق ما تقوم فيه الدولة من خلال الاهتمام بحضارات المنطقة الشامية ، وأنا **أظن** أن المندائية هي المجاور الحضاري لأقوام تلك المناطق من كنعانيين وأراميين ، وما تركوه من ارث لغوي باللغة الآرامية والسريانية والمندائية القديمة يؤكد على هذا بل يؤكد تطور الفكر الروحي والفلسفي والديني لديهم ، يؤكد قوة بلاغة الجملة والفكرة والقيمة الدينية (الكنز العظيم )لأن قراءة نصوص كتبهم المقدسة ومنها الكنز ربا والروحانية والسماوية لهذا الكتاب بالرغم من اختلاف النصوص وأفكارها عن بقية الكتب المقدسة كالتوراة **والانجيل والقرآن** وغيرها من الصحاح التي توارت وراء الأزمنة السحيقة ولم يبق منها إلا إشارات قليلة وشيء غير أن صابئة الشام هم .نادر من نصوصها وأغلبها على شكل حكايات مؤسطرة في الذاكرة المكائنية لتراث المنطقة صابئة حران والمعروف عنهم انهم من عبدة النجوم كما أشيع في الدراسات التاريخية وكانت حياتهم تمتلك

المشابهات الطقوسية لمعتقدات حضارات تلك المناطق ومنها الحضارة السومرية والفينيقية والكنعانية ، وقد حاول مندانيو العراق من هم منحدرين من أصول عراقية نزحت في الأصل البعيد من المناطق المحاذية لبلاد فارس وبالضبط من مناطق دهلران وهي منطقة جبلية تقع تماما أمام منطقة الشهابي الملاصق لقضاء بدره في محافظة ، ويمكن رؤية جبل (العمارة) من جهة ومن الجهة الثانية لناحية الطيب في محافظة ميسان (الكوت) واسط حاولوا النأي عن معتقد دهلران من منطقة شيخ سعد على الطريق الواصل بين الكوت مدينتي الكوت والعمارة صابنة حران **الذين يظن أنهم** لم يقرؤا بالوحدانية بشكلها الواضح وآثروا الشرك ، ولم يكونوا من مؤمني ومريدي يحيى المعمدان الذي عمد السيد المسيح ع في نهر الأردن وهو من الأنبياء الشهداء وله قبر يزار من رعايا كل ولصابنة العراق **كتب** مقدسة . ويطلق عليه قبر النبي يحيى ع . الديانات في وسط مصلى الجامع الأموي في دمشق وفيه وصايا النبي لقومه وتحمل دلالات روحية وتربوية ودينية تخص (تعاليم ومواعظ النبي يحيى) مسمى ب سلوك الطائفة في شتى مفاصل الحياة

يدعي بعض المندانيين إن صابنة حران الحقيقيين هم موحدون وعاشوا في هذا المكان القائم في أعالي الفرات ، بالرغم من أن مناطق أخرى في المنطقة تسمى بذات التسمية ومنها ماهو في مناطق شرق العراق كما في المنطقة المسماة وادي حران في قضاء مندلي والتي كانت في الحرب العراقية – الإيرانية مسرحاً ملتها لمعارك ضارية بين البلدين ، وكنت قد عشت ربحاً من الزمن في ذلك الوادي الذي يفصل الحدود العراقية – الإيرانية مقابل إقليم **إيلام** ووجدت من سكان المنطقة واغلبهم من الرعاة أو خدم بعض مقامات قبور الأولياء من العلويين الذين كانوا يدفون في تلك المناطق بعد أن يصيبهم الإنهاك والجوع والعطش من طول المسافة والطريق الذي يقطعونه هرباً إلى بلاد فارس من ظلم وجور ولاة بني العباس حيث تجد المسميات أغلبها تنتمي إلى أولاد الأمام موسى الكاظم ع ، وهؤلاء الرعاة والمزارعين من سكان تلك المناطق يملكون رؤية عن مرجعية المكان ، وعندما سألت أحد الشيوخ إن كان وادي حران في الزمان القديم موطناً لجماعات دينية غير المسلمين ومنهم الصابنة؟ إن المكان كان موطناً للكثير من الديانات القديمة وعاشت هنا أقوام عديدة وجرت في المكان حوادث تاريخية :قال كثيرة ولديهم في حكاياتهم وأساطيرهم ما يدل **على أن** المكان كان **يكتظ** بالمعابد والكهنة والأقوام القديمة وربما من بينهم هؤلاء الصابنة الذين يسمع عنهم ولم يراهم في حياته

وهكذا تتشابه الأمكنة وتتشابه في تاريخها كونها كانت تمثل منذ القدم امتداداً حضارياً واحداً وكانت بلاد الشام ، حيث تتوالد الحضارات والديانات وتتصاهر فيما بينها وتكاد أن تعيد (بلاد الهلال الخصيب) والعراق تدعي لهذا ظل المندانيون يؤكدون على أن المندانيين **ذوو** معتقد واحد أينما جذورها الواحدة إلى أبناء نوح سام وحام حلت أمكنتهم حتى فيما **بينهم** صابنة حران وهذا أجادت فيه رؤية العالم العربي الكندي عنهم قوله كما ذكره ابن النديم في الفهرست

بان دعوة هؤلاء القوم كلهم واحدة وستنتهم وشرائعهم غير مختلفة وان قبلتهم واحدة فقد صيروها لقطب الشمال ) وقصدوا بذلك البحث عن الحكمة وان المفترض عليهم من الصلاة في كل يوم ثلاث ولا صلاة عندهم **إلا** على ظهور والمفترض من الصيام ثلاثون يوماً وعليهم الغسل من الجنابة وتغيير الثياب ومن مس الطامث ويتركون الاختتان ولا يحدثون على فعل الطبيعة حدثاً ويتزوجون بشهود وفضيلة الذكر والأنثى سواء ولا تطلق إلا بحجة بينة عن (فاحشة ظاهرة

ولكن بعض العلماء المهتمين بالديانات الشرقية القديمة ومنها المندانية يؤكدون أن الترابط العضوي والاجتماعي ويؤكد الدارسون كما يذكره . والديني قائم بين صابنة حران وصابنة البطائح وهذا ما لا ينكره المندانيون اليوم (( قوله 8 / 12 / 2004 العالم الألماني البروفيسور **رودولف كورت** في حوار معه ظهر في صحيفة الحياة بتاريخ هناك **نصوص** تشير إلى أن المندانيين الأوائل تعرضوا لاضطهاد اليهود ، الأرثوذكس منهم على وجه الخصوص ربما ، فتركوا سورية وفلسطين لاحقاً وتوجهوا عبر تلال الجزء الشمالي من وادي الرافدين إلى الجزء الجنوبي منه **سنة** وبدأت في القرن الأول الميلادي قيل أن يصلوا إلى جنوبي وادي الرافدين في 100 في رحلة استغرقت نحو لكن لا بد أنه ، بالتأكيد قد يكون هناك أفراد من بابل أو جنوب وادي الرافدين ممن اعتنقوا المندانية . القرن الثاني وأعتقد بأننا لا نستطيع تفسير كل ما . كان هناك أشخاص آخرون على معرفة بالطقوس والتعميد قدموا من الغرب لكنها نظرية أو . يتعلق بالمندانيين من ميثولوجيا وثيولوجيا وأيديولوجيا وغيرها استناداً إلى أواني الأدعية وحدها ((فرضية

هذا هو التصور العلمي والفقهني والتاريخي عن صابنة حران وهو مشابه لما كان العرب في أغلب عصورهم يتعاملون معهم دون أن يشيروا إلى مندانيي الجنوب العراقي إذ كانت حران تمثل في المدونات الشرقية منذ النهضة التدونية في العصر العباسي المكان التاريخي والروحي لهذه الطائفة ، وبالرغم من هذا ونتاج اقتراب حران من منابع حضارية ودينية أخرى كما أسلفنا لحق بصابنتها بعض سوء الظن والتفسير بالرغم من أن

النصوص القرآنية في أكثر من سورة وآية يجعلهم من أهل الجزية كانت قاطعة وواضحة واتخذها بعض علماء الفقه والشريعة والتفسير نصوصاً لا حياض عنها وغير قابلة للتأويل وإظهار القصد المختلف من السورة الثانية 62 الآية. لقد ورد ذكر الصابنة وبصورة مستقلة في القرآن الكريم وفي الآيات الآتية إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً (ورد (سورة البقرة (سورة المائدة) من السورة الخامسة 69 وفي الآية). (فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف (ورد أن الذين آمنوا والذين هادوا) : ورد (سورة الحج) 22 من السورة 16 وفي الآية). (عليهم ولا هم يحزنون) والصابين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد وطوال تواريخهم نأى الصابنة المندانيون في المحاجات الفقهية والدينية عن صابنة حران وأثبتوا لذوي السؤال أنهم من الموحدين وأصحاب الكتاب وحققت عليهم الجزية كما ذكر في القرآن أسوة باليهود والنصارى كما حدث في زمن الخليفة العباسي المأمون ، ولم تكن دواوين الخلفاء **تخلو** من علمائهم ومفكرهم وخاصة أولئك الذين برعوا في الرياضيات والفلك ، وبعضهم نال نصيب نديم الصحبة لكبار علماء ونقباء الشيعة كما عند الشريف الرضي الذي كان أوفى أصدقائه مندانياً ، ولم يكن يهاب ويستعار من هذه الملة ، ويمكن أن نتذكر الرد الحكيم للزعيم الوطني عبد الكريم قاسم عندما اقترح في مجلس الوزراء تعيين الدكتور العالم المنداني عبد الجبار عبد الله رئيساً لجامعة أنا عين : بغداد ، فكان اعتراض رئيس مجلس السيادة أن لا يصح تعيين غير مسلم لهذا المنصب ، فرد الزعيم !... رئيساً لجامعة علمية وليس أمام جامع

قد يؤخذ من خلال الحكاية التاريخية والتوراتية بعض التصورات للوجود المنداني في حران حيث تنسب أول الموجودات الأزلية لهذه الديانة ، وهذه التصورات قائمة على مسيرة النبي إبراهيم ع الذي تذكره أنه ولد أو بعث من أور الكلدان العاصمة المقدسة لسلاسل أور الثلاثة والتي عاشت عصرها الإمبراطوري في زمن سلالة أور ، وفي المعتقد أن النبي عاش في زمن الدولة الأكديّة حيث ظلت أور تمثل واحدة (م. ق. 2006 – 2113) الثالثة من المدن الدينية والروحية حتى بعد انتهاء الدولة السومرية حيث عمرت ورمت معابدها حتى في زمن الدول ويبدو أن من المندانيين الأوائل هم بعض البابلية في زمن حمورابي ونبوخذنصر وغيره من ملوك الدولة الكلدانية من مضي مع إبراهيم ع في رحلته وربما كانوا هم من بعض مؤمنيه ، وبما أن بابل وحران وغيرها من المدن هي من أقام فيها النبي رداً من الزمن ثم أكمل مسيرته الى مصر وفلسطين والجزيرة العربية ، ويبدو أن أولئك المندانيين الأوائل فضلوا البقاء والاستقرار في حران ، وربما كان النبي يترك بعض **مريديه** واتباعه في المدن التي وهكذا يكون الصابنة المندانيون الأوائل من بعض الذين تركهم . يمر فيها لأتمام التبشير بالرسالة التي بلغ فيها إبراهيم ع في مدينة حران أو تخلفوا عنه نتيجة لظروف وصعوبات الطريق التي واجهت النبي كما في روايات التوراة ، وربما استحسن المندانيون المكان كونه يقع قرب مجرى الفرات وأقاموا هناك معابدهم وشكلوا وجوداً سكانياً مع باقي سكان المدينة وكان أغلبهم من عبدة الآلهة الحجر وبعضهم من عبدة الأفلاك والنجوم فكان هذا الخلط الحياتي والاجتماعي هو من نقل تلك الصورة المشوشة والمؤسطرة عن صابنة حران ، وربما القسر الديني والسياسي قد فرض على أولئك المندانيين نمطا من عبادة معينة لتلك الممالك والسلالات التي كانت تسيطر على المنطقة.

عاش الصابنة المندانيون منذ أقدم الأزمنة ، وهم حسب التدوين المقدس في كتبهم من أقدم المعتقدات التي تداخلت **نشورها** التاريخي في عدة أمكنة ولكنها محصورة بين العراق وبلاد الشام وبلاد فارس حصراً ، ولديهم ما يدعونها في سفينة النجاة ، ومجمل ما يصل (ع) ويثبت أنهم عاصروا إبراهيم في أور ، وكان منهم من صعد مع نوح الباحث والقارئ من المتيسر والمسموح في التراث الديني لهذه الطائفة قد يعطي تصورا وانطبعا واضحا أن هذا المعتقد بشكله وثقافته ومرجعياته وحجته البلاغية قد يمثل صورة لأزل توحيدي قديم ، وربما اعتكاف آية الله الخامنني على الانصراف لدراسة هذا المعتقد بشكل عميق وعلمي وفقهي ومنصف أوصله الى حقيقة أن المندانيين صلة روحية ودينية وتبشيرية ودروس (ع) وكان ولهم مع النبي الشهيد يحيى . قوم أصحاب رسالة وموحدون حياتية والتي يستنبطون منها توحيد ذاتهم في كتلتهم الأبدية التي حافظوا على تماسكها منذ أقدم الأزمنة ويدركون مع تعاليمه ذلك الأفق الواسع الذي حملته تلك التعاليم وهي تدعو الى الوحدانية والصفاء ، فالنبي الكريم الذي يمتلكون الظن بأنه كان من العدل والطيبة (ع) يتفاخر مندانيو اليوم بالانتساب إليه بعد نسبهم لادم وإبراهيم واحترام الرؤية الأخرى انه حين عمد السيد المسيح فهو لم يعمده وفق تعاليمه المندانية الأولى بالرغم من أن من طقس معمداني تعود الى ديانته كما ذكره (ع) السلام طلب منه صباغته وفق ما يؤمن فيه يحيى (ع) المسيح : (ع) النص في الإصحاح السابع قول السيد المسيح

ألغ .. وإن لم أتلمذ ، يا يحيى اصبغني بصباغتك وانطق الاسم الذي تذكره علي ، وسأذكر صنيعك هذا في وثيقة (



(..اسمي من سجلك  
والحديث بين النبيين قبل التعميد يخضع الى رؤى تتخالف ومنطق قد يصعب فهم مغزاه بالرغم من أن السيد المسيح  
، لكن لضرورات قد فرض (ع) ، كان واضحا في نيته من اجل رسالته الكهنوتية الموصى فيها ، وكذا يحيى (ع)  
، قبله وخاصة الحيطه والحذر من التعامل في هكذا أمور خطيرة في المجتمع العبري ، (ع) مثلها على موسى  
وفي النهاية كان رد السيد المسيح واضحا في ذلك . وكان الحوار يشير الى ضبابية الوصول الى مشترك واضح  
(.أنت مسؤول عن خطاياك وأنا مسؤول عن خطاياي) الجدل قوله  
كتاب تعاليم (يهيا) كما ينطق في المندانية والعبرية هو صورة من صور صناعة حكمة الروح وتهذيبها ، وكان  
الكهنة المندانيون الكبار ولم يزلوا يرون فيه مرجعاً مهماً بعد كتاب الكنزا ربا ، لأن المندانية كغيرها من الديانات  
لكن في النهاية جاء . الشرفية ترى في الرسول لهذه الديانة المبشر والمرجع والكلمة الواصلة بين العبد وخالقه  
:الأمر الإلهي بتعميد المعلم لتلميذه كما ورد في كتاب تعاليم ومواعظ يحيى  
يا يحيى أصبغ المسيح ، أصبغه في يردنا وأصعد ضفة النهر حيث روح القدس تمثلت في حمامة رسمت صليباً ((  
))..

إن مادام المندانيون يرون في القديس والنبي يحيى معمدانا ورسولا لوجودهم فأين كانوا قبل يحيى ، وهم يذكرون  
ومن جاء (ع) وأنهم عاصروا نوح وإبراهيم (ع) (دوما في المحاجات التاريخية لوجودهم أنهم من نسل آدم  
بعدهم ؟

(ع) هذا يعني أن المندانيين وقعوا تحت التأثير الديني والحضاري ومتغيراتها عبر عصور سبقت ميلاد المسيح  
وهذا ما ثبت في قراءات تاريخية لتلك العصور والتأثير الذي لحق في المندانية قسراً أو طوعاً ، وأهمها تلك التي  
هيمنت على الحياة الدينية والدينية للمناطق التي تواجد فيها المندانيون الأوائل في بلاد فارس وبلاد الرافدين  
وهذه التأثيرات تنحصر في المعتقد الزرادشتي الفارسي وديانات وادي الرافدين القائمة على تعدد الآلهة كما في  
آلهة سومر وأكد وبابل وأشور ، وربما القراءة الأسطورية لتراث وادي الرافدين وقراءة الإرث المنداني القديم  
يقربنا كثيراً من وضوح رؤية هذا التأثير في الكثير من طقوسه وخاصة تلك التي ترى في الماء هاجسا للطهارة  
الروح والجسد ، وما يتعلق بالسماء وأبراجها والكيونة التي تهيمن عليها ، وبالرغم من أن أقوام بلاد الرافدين  
استطاعت أن تقترب من المفهوم السماوي والوحداني من خلال جعل انو اله السماء كبير الآلهة ، لكن الزرادشتية  
الفارسية اعتمدت على النار كمؤثر مطلق وروحاني للبشر، ويبدو أن المندانيين بعد نزوحهم من أراضي فارس  
صوب البطائح السومرية صار التقبل السماوي للديانات الرافدينية وما اكتسبوه من دعوات الأنبياء والقديسين  
أقرب الى وجدانهم وعقيدتهم مع انهم اكسبوا حالة متفردة هي الحالة الغنوصية التي تقترب من السلوك الصوفي  
إلى يعتقد أن سلوك المتسامي في الخيال يمنح النفس تقيية الوقوع في الإغراء المادي وأثامه ، وبذلك هو يزهد عن  
.ماديات المحيط ويغط في سبات حاله ، ولا يلتفت الى ما يعتقده كماليات الزينة والهناء  
وفي تصور متخيل اعتماداً على ما تعكسه الرواية التاريخية لحياتهم وما يتناقضونه في ارثهم المدون والشفهي  
وطبيعة حياة المجتمعات التي سكنت جنوب العراق واهمها شعوب سومر و أكد ، كان المندانيون يعيشون في  
تجمعات سكانية قليلة وبعضهم يحاول جهد الإمكان جعل سكنه مقاربا الى المجتمعات السكانية الأخرى غير انهم  
كانوا كثيري التجوال بين هذه المجتمعات بما يشبه الدعاة الصامتين والذين يمارسون المهن الطقوسية التي تقترب  
من الفعل الكهنوتي مثل قراءة الطالع وتدوين الطلسم والطب الروحاني والجسدي ، وبعضهم قادته فطنته الروحية  
الى امتهان مهن صعبة خلال هذا التجوال مثل مهنة صناعة السيوف والصياغة وأدوات الزراعة ، ولم يمارسوا في  
حياتهم أي مهنة حرة فنادر ما يكون بينهم صياد أو محارب أو فلاح أو وزان أو حائك، إنها جزء من خصوصية  
الانتماء للحياة والثبات على ما جبل عليه المنداني ليكون مع خصوصيته والتي بالرغم من تعرضه للكثير من  
ممارسات الاضطهاد والإبادة ومحاولة الإرغام على تغيير ملته إلا انه في النهاية نال اعتراف المجتمعات على هذه  
الخصوصية واكتسبوا الاحترام حتى مع الإمبراطوريات القاسية والملتزمة كما حدث في الرواية التالية والمأخوذة  
1999من مقالة للباحث المنداني غضبان رومي ونشرها في مجلة آفاق مندانية

مرت عدة سفن تحمل بعض العوائل المندانية من آل مران والمندوية بالقرب من الجيش التركي المُعسكر في ((  
صدر الحد ، وفي المساء رست السفن ونزل راكبوها على شاطئ دجلة للعشاء ، وعندما سمع القائد التركي زارهم  
وسألهم عن أصلهم فأجابوه بأنهم صابنة مندانيون يرغبون السكن مع عشيرة بني لام لأنهم أناس طيبون وأخيار ،  
وأوضحوا له بأنهم صاغة مهرة ، وبعد أن قضى وقتاً معهم وعرف طبيعة خلقهم ودارت قهوتهم على الحاضرين  
وبعد أخذ ورد وافقوا (طابو) طلب منهم أن يسكنوا هنا ويعطيهم كل شواطئ دجلة في المنطقة ويعطيهم بذلك  
وشرعوا ببناء بيوتهم من القصب والبردي ثم غيروها الى شواطئ الكحلاء ببناء بيوت من الطين هناك ، ولذلك  
القيمة وأول من (مي سيانة) نستطيع الاستنتاج والقول أن المندانيين هم البناة الأوائل والسكنة الأوائل لمدينة

(( ، حيث استوطنوها مع القائد التركي الذي بنى القلعة 1865سكن مدينة العمارة الحالية وكذلك قلعة صالح عام ذهبت حران وأهلها الى **أطلال** التاريخ وألواح الطينية والرُقم المدفونة ولم يبقَ من المكان سوى أطياف من عاشوا فيه وتركوا لنا أرث المدونات وأحفاد زحفوا بمراكب المعيشة والطقوس الى الجنوب حيث شكلوا فيه وحدة دينية وحضارية حافظت بإصرار عجيب على وجودها ولم تنقرض أو تنحسر مع تعاقب الحضارات ومتغيراتها ، فقد عاصروا أهل سومر وذهبت سومر ، وبقوا هم ، وكذا مع أهل أكد وبابل وغيرهم من الذين أسسوا لهم في العراق دولاً و**ممالك** وإمبراطوريات وحتى مجيء الدولة الإسلامية التي نظرت إليهم دون **أية** فوارق وقسر وجعلتهم كما أمر القرآن وأوصى أن يكونوا من أصحاب الجزية

وفي الجنوب حيث الماء الوفير عاش المندانيون مع أهل البطانح دون أي شعور من الطرفين بالتنافر ، بل أن التعايش كان قائما على مدى الأزمنة وكانت القبائل العربية في الجنوب العراقي تستقبل الوافد المنداني الذي يحمل بضاعته ورواه وقراءات الطالع في سكن خاص وينال شيئا كبيرا من الاحترام من قبل شيخ القبيلة ، ويكفي للمندانيين أنهم عاشوا بين سكان الأهوار ومدنهم منذ تأسيسها وكان لهم الدور الكبير في تأسيس المناشط وأصبح ذلك التعايش يمثل صورة الحضارية الأولى في تلك المناطق وخاصة المؤسسات التربوية والإدارية للاندماج الاجتماعي مع امتلاك هذه المكونات خصوصياتها الثقافية والروحية ولم يكتب يوما أن أهل الأهوار منعوا مندانيا من إقامة طقوسه بالرغم من حرص الصابنة على إقامة طقوسهم بعيدا عن المشاهدة العامة لسكان تلك المناطق وربما كان كهنتهم الروحيون يدعون من أشرف القوم من المسلمين وأصدقائهم الموثقين لمشاهدة وتأمل هذه الاحتفالات حيث أرتنا الوثائق والصور التذكارية للمجالس المحلية والبلدية لمدن وألوية وقصبات الجنوب العراقي في بداية الحكم الوطني في العراق وجود شخصية مندانية معروفة ومؤثرة ضمن أي تشكيلة من هذه التشكيلات

ويمكن أن نقرب الصورة بشكلها الروحي والتذكاري مع لحظة عشتها في ناحية الكحلاء عندما كنت جندياً لأشاهد مرة أخرى متعة هذا الطقس في واحد من أعيادهم عندما صار الماء مغتسلا لظهارة الروح والبدن ، حيث نزل رجال الدين بملابسهم البيض الناصعة الى ماء النهر وسط تجمهر أبناء الطائفة حيث مراسيم زواج بين شابين مندانيين صبغت حمرة البراءة والخجل خد العروس لأرى في مرآة انعكاس أزمنة بعيدة كان فيها من فرط محبة (معدان الصابنة )التعايش بين المندانيين وسكان الأهوار أن يقولوا نحن من كان الماء يغسل ذاكرة كل شيء ويديم وصل الحياة من خلال صناعة المتغير لأزمنة وجود أي هاجس حياتي ، وكانت الحضارات وحتى اليوم تخشى في موتها شينين لا غير ،جنون أباطرتها وشح الماء ، فجنون الأباطرة يفضي الى الحرب المدمرة ، وشح الماء تفضي الى العطش وبالتالي موت الأخضر واليابس وكل حي لهذا نظر المندانيون الى الماء بوعي وقدسيتها وخشوع ،وربما هم تواصلوا مع الطقس الروحي الأول الذي اصبح ، ومنحه بركة الرؤيا والنبوءة والبشارة ، فكان يمثل في أدبياتهم الدينية (ع) فيه يحيى المعمدان جسد يسوع والأسطورية والتراثية شيئا ذكرته الكتب ومشوا على الذكر ولم يحددوا عنه قيد أنملة حتى قال أحد كهنتهم لي في منه نأخذ الحياة ، والحياة تأخذ وجودها من الرب المزكي :ذلك المكان على ساقية ماء باردة في هور الكحلاء هم يجدون في الماء مغتسلاً لكل خطيئة وصانعاً للشيء الذي يكون فيهم الشعور والتسامي والخاتعة بما يملكون ، لهذا فهم بتكوينهم الطبقي يقتربون من الاشتراكية بمفهومها العلمي وقلما تجد بينهم الفوارق المادية وخاصة في الأزمنة القديمة ، وطالما يكون الماء تجدهم يجاورونه في ألفة العيش والمحبة **برغم** أنهم لا يستترزقون منه ولكنهم يعايشونه في لحظة التكريس والتعميد واقامة النذور والأعياد وكل ما يحتاجه المنداني ليكون قريبا من خالقه كما هو الطقس الضروري لإنقاذ الأنفس من (المصيبة)إن الماء هو طريق للأيمان بان التعميد (( :يعتقد كهنتهم بالقول ((برائن الأسرار المادية وتقوية النفس البشرية بتعايشها بنور الحياة المتجسد بالمياه الحية الجارية فكل ماء **جار** هو الحياة في تحولاتها التي لا تتوقف ، هكذا يعيش فيهم المعتقد هؤلاء الذين يسكنون في حضن الطبيعة وقرب مراعي القصب ومدن الجاموس والأساطير

يحتفون مع معدان المكان بذلك الألق الحياتي الذي توارث من تلك الأزمنة التي لم تسقط في بئر الانقراض والنسيان بل أبوها حياة وفعالة ومبتهجة بما تؤديه من لحظة متسامية ما بين الشعور والإحساس إذ يختلط المادي في الحسي كلما اسبح في خياله يمنحني بهاءه :فتولد نشوة الوصول وهي **شيء** من الغنوص كما عند المتصوفة في قولهم وكذا المندانيون يفعلون ذات الشيء لحظة اكتساب طهارة الماء وسيره إلا منته ، فصورتهم على ودهاءه وفطنته ضفاف دجلة الكحلاء وهم يمارسون طقوسهم يعكسون للناظر الصورة الشجاعة والمؤمنة بما زرع في قلوبهم من إصرار وإدراك ، وهكذا أحسست هناك بأن المعدان ليسوا فقط هؤلاء الذين دفعتهم طبيعة القدر الحياتي وظروف المكان ليكونوا هكذا حراس الأبد لقطعان الجواميس التي كانت في يوم ما من الحيوانات المقدسة كما في غابر فيكون الامتداد البيئي والروحي بين معدان الإسلام ومعدان الزمن السومري وعند الهنود وغيرهم من الشعوب

الصابنة هو امتداد لحياة المكان وأصالته

وجايولهم (صابنة البطائح) بين صابنة حران وصابنة المعدان ، وأقصد الصابنة الذين عاشوا قرب أهل الأهوار على محبة التعايش والاندماج دون أن **يخدش أحد مشاعر** الآخر ، فقط فضل المندانيون أنهم اقتربوا من ناصية العلم واكتساب المعرفة أكثر من أولئك الذين فضلوا الطبيعة البكر والارتقاء بأحضان الطبيعة والرضوخ لقدرها في كل ما تمنحه ، بينهم فاصلة من الزمان ليست بعيدة ، فحتى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وما تلاه كان الرحالة والمكتشفون ومنقبو الآثار يتحدثون عن أناس نال من حياتهم الكثير من الغموض والجدل ، فهم لم يقصدوا عرب الأهوار فقط ، حيث تميزت حياتهم وطبيعة عيشتهم عن بقية أطياف الشعب العراقي ، بل من جاورهم من طائفة يقول أبنائها أنهم ما تبقى من مجد السلالات الغابرة وأن لديهم ما يثبت ذلك ، عندما عرض رجال الدين والكهنة والشيوخ لأولئك الرحالة والدارسين الأجانب كتبهم وقرائيسهم التي حفظت منذ القدم على ألواح الرصاص ، فكان أن أصاب الذهول البعض ، ونشر أبحاثاً ودراسات عن المندانيين الذين كان يعرف عنهم في أوروبا من خلال النزر اليسير الذي ذكر في تواريخ الديانات القديمة وكذلك ما كان مدونا عنهم في التراث العربي - الإسلامي ، وإزاء هذا الكشف حاولت بعض الجامعات الأوروبية فتح أقسام خاصة لدراسة هذا المعتقد ، فالليدي درووا الباحثة البريطانية التي تعبر رائدة التعريف والتعمق والبحث المقارن في عالم المندانيات كشفت من خلال كتابها عن الصابنة المندانيين ومعتقداتهم وفي بعض محاضراتها في الجامعات البريطانية والجمعيات العلمية أن الجنوب العراقي هو حاضنة أزلية لأولئك الذين **تظن** أنهم يتبعون أقدم الديانات الحية وانهم على الرغم من قتلهم ومحاوله الحفاظ على وجودهم وتراثهم بشيء من العزلة والصرامة والكتمان إلا أنهم كانوا مشاركين فاعلين في ديمومة المجتمعات المحيطة بعضهم والسعي الى ديمومتها وتطورها عندما تحدثت عن أناس تمسكهم عصبية المعتقد وحب الحياة وإظهار الطاعة للرب الواحد وجعل الماء المكان المقدس لأقامة الطقوس ومراسيم التعميد ، (المندى) وكان لديهم كما بقية الديانات **مكان** للعبادة يشبه **المسجد** والكنيسة والكنيسة في وظيفته يسمى

تفتي بنا الديانة المندانية الى عوالم الذات الواسعة التي هي مصنوعة من مشاعر الغنوص الذي يعتمد على الجهد الذهني الذي لا يحتوي **أية** شائبة مادية ولا يحتاج منا الى جهد عضلي للتركيز كما في اليوغا الهندية ، لأن التسامي في فضاء العقل يقودنا الى صفاء خالص والذي اعتمده أخوان الصفا في صناعة مودتهم مع الفكر والفلسفة وأقاموا فكان ينظر إليهم في مرجعيتهم إن ما جاوروا فيه خفاء **جلساتهم** ومناظراتهم . عليها حجج وافتراسات ومناهج مأخوذ من ارت صابنة حران الذين كانوا في ديانتهم يضعون غنوص الروح وحالتها المترامية الذهن والتسيب ويفسر الدكتور . طريقة للاتصال بعوالم الحسية والبعيدة كما مع موجودات الطبيعة من كواكب ونجوم وأفلاك رودولف في ذات الحوار في صحيفة الحياة الغنوص على أنه

((الغنوصية لها علاقة بالمعرفة الخاصة بأصل النفس البشرية وبكيفية عودة النفس الى عالم النور))

وربما أو يكاد يكون من الجزم أن حمل صابنة حران هذا العالم النوراني بعد أن شعروا في تعرضهم لخطر الإمبراطوريات والاختلاط ودخول المعتقدات الملحدة الى ديانتهم القديمة القائمة على الشرك وعبادة الأصنام والأبراج والحيوانات ، ليؤسسوا في جنوب بلاد الرافدين مستوطناتهم ولتبقى الى اليوم حاضنة لذات الروى التي اعتمدت الغنوص مرجعا لأقامة ذلك التواصل بين العبد وخالقه

أحتضن الجنوب العراقي أبناء هذه الطائفة كما تحتضن الأم وليدها البكر ، وعاشوا على الأديم العذب والمالح لمياه الرافدين دون أي شعور بالتذمر والبطر والغرور ، ولكنهم مع التطور المدني والحضاري الذي شهده العراق بعد الحكم الوطني وتطور المرافق الحياتية وتتهيئ آفاق التعليم العالي للكثير من أبناء الطائفة بدأت بعض الهجرات المتفرقة من أماكن الأزل الى العاصمة حيث هاجرت بعض العوائل المندانية من العمارة والناصرية وسوق الشيوخ والكحلاء وقلعة صالح والحلفاية والبصرة الى بغداد لأسباب حكمتها الوظيفة وحصول البعض على شهادات جامعية عالية توجب عليهم الانتقال الى العاصمة والعيش فيها ، والبعض قاده تطور الحياة ورفاهيتها وتحسن المستوى المعاشي عندما كثرت الأسواق في بغداد ومنها سوق **الصاغة** الشهير في شارع النهر اللصيق بشارع الرشيد من جهة نهر دجلة وكان اغلب صاغته هم المندانيون

وفي الحرب العراقية الإيرانية بدأت هجرة مندانية **كبيرة** للعوائل بسبب ظروف الحرب ونتائجها عندما كان الكثير من المندانيين يسكنون في مدن قريبة من جبهات الحرب كما في قلعة صالح التي كانت يقع فيها مقر الفيلق السادس ، والكحلاء التي كانت مقرا لفرق قتالية للفيلق الرابع ، فيما هاجر صاغة منطقة العشار الى بغداد بسبب وصول فذائف المدافع الإيرانية الى أماكن رزقهم **لاقتراب** العشار من جبهة القتال في معارك شرق البصرة وبحيرة الأسماك

فيما لم يهاجر من عوائل المندانيين في الناصرية وسوق الشيوخ إلا القليل وأكثرهم في فترة الحصار الاقتصادي على العراق **نتيجة** للمساد وعزوف الناس عن شراء الذهب بسبب قلة الموارد المعيشية وانتشار الفقر والعوز

وتحول سوق الصياغ في المدينة الى سوق للنجارين . وخاصة بين موظفي الدولة الذين كانوا أهم زبائن الصاغة والحدادين والمواد الإنشائية ، بعد أن باع الصاغة محلاتهم وفضلوا بغداد سكناً ، وآخرون بدأت عندهم نوايا الهجرة الى أوروبا والتي شهدت في منتصف التسعينات موجة من اللجوء وخاصة في السويد وهولندا واستراليا 2003، ولديهم اليوم جاليات كبيرة في هذه المناطق تزايدت بشكل كبير بعد الغزو الاحتلال الأمريكي للعراق في عندما تعرض الكثير من أبناء الطائفة الى حملات تصفية وقتل وتهديد منظم من قبل الجماعات الإرهابية التكفيرية ، فكان أن دفع الكثير من أبناء الطائفة وبينهم رجال دين حياتهم ثمناً لبعض الفتاوى التكفيرية والمتخلفة التي ولم تفعل الدولة شيئاً فعلاً يحميهم وتركتهم يحملون حقائب السفر . تدعوهم الى مغادرة العراق أو يعلنوا إسلامهم والتهجير بعد أن تركوا بيوتهم ومحلاتهم وخاصة في منطقتي البياع والعامل حيث تكثر العوائل المندانية التي سكنت بغداد ، وكان أغلبهم استقر في منطقة جرمانا في سوريا ، وكأنها هجرة مضادة الى أماكن النشوء الأول ، ففضلوا الاحتماء به على أمل عودة الاستقرار والعودة الى وطنهم وبيوتهم ( ع ) للديانة حيث يقع قبر نبيهم يحيى ومحلاتهم .

يعيش أغلب مندائي المهجر في أوروبا وينتظر المندانيون في سوريا مع قوافل طالبي اللجوء أمام مكاتب الأمم المتحدة في دمشق ، وللمندانيين في المهجر جمعيات ثقافية واجتماعية ولديهم مواقع إلكترونية ومجلات ودور نشر ، ويعقدون مؤتمرات عالمية سنوية في محاولة جمع الشتات المندائي والتعريف بقضيتهم ومنها جمعية ناشطة تتوزع مكاتبها بين مالمو ولندن ونيويورك وهي اتحاد الجمعيات المندانية في المهجر التي أصدرت كتابا الصابنة المندانيين في الفقه الإسلامي - تأليف ) ومنشورات حول الديانة المندانية وثقافتها ومن أهم هذه الكتب 2006 رؤية وسياحة في المندانية النقية - تأليف نعيم عبد مهلهل - بغداد ) و 2006 الدكتور رشيد الخيون - بغداد ( و دمشق / 2007 الصابنة المندانيون - حاضرهم وماضيهم - تأليف الليدي دراوو - طبع دار المدى ) و ( دمشق 2008 عصافير الشارع المنداني - تأليف نعيم عبد مهلهل -

مندانيو هذا الزمان بالرغم من حزن الشتات وعذاباته يمسون أمل العودة الى منابع الحلم ، ويتمنى كبار مهاجريهم أن تحمل نعوشهم لتواري الثرى في أمكنة السعادة والحلم حيث ارض الأجداد والضفاف الرافدني الذي يسقي لحظة ولهذا هم يمسون غصن الزيتون ويلوحون فيه الى أفق التمني أن يعم . بهجة طقس التعميد بنسانم مساء العراق . السلام في البلاد التي نطقت معهم هجائيتهم المندانية وصنعوا من أطيائها ألواح وجودهم ودمى طفولاتهم بين صابنة حران وصابنة المعدان وصابنة هذا الزمان يضيء الزمن شمعدان الأساطير وتبريكات الأنبياء وأحلام . القصب والماء والترميذا الذي اعتمر البياض طريقا للوصول الى فسحة البهجة في حدائق العشب والسدر والنخيل هم باقون وسيظلون بالرغم من تعاقب الأزمنة وعاصفة العولمة ومتغيرات الآلة والاتصال ، لأن غنوصية الديانة وقوتها ستوفر لهم اتصالا سريا مع تلك السرمدية التي ظلت تنير لهم مصابيح الحياة وليبقوا خالدين مع أحلام أنبيائهم وكتبهم المقدسة

## الفصل الرابع

### الإنسان يموت ، الجاموس يموت ، والقصائد أيضاً .. الأهور

كُلِّفَ من قبل وزارة الموارد المانية بطباعة كتابي عن الأهور والذي نشرته صحيفة الزمان الدولية 2005 في عام على شكل فصول ، ليظهر بعد ذلك في طبعتين عراقية وسورية ، ثم صدر عن الوزارة ذاتها سيناريو سينمائي كتبتة ، ثم وخلال أقامتي 2007 عن دار نينوى في دمشق وبطبعتين عام (قاسم حول )وبعون من المخرج العراقي الكبير في دمشق ، وبدعم من السيد وزير الموارد المانية أصدرت مجلة الأهور والتي كانت تطبع في دمشق وتوزع في ، هو هدية العدد وقد وزع (جنة عدن والحياة الجديدة .. الأهور )العراق ، ومع عددها الثاني كان كتابي الموسوم ثم توقفت المجلة بسبب انتقال أقامتي إلى ألمانيا . 2007 مجاناً مع المجلة في مهرجان المدى الثالث في اربيل عام وبذلك أنطفت جذوة واحد من أجمل أحلامي من أجل عالم ساحر سعيت دائماً أن أبحر في لذته المدهشة منذ تعييني ومرة ثالثة طبعت وزارة التربية العراقية كتابي عن .في الثمانينات معلماً في واحدة من قرى الأهور وحتى الساعة وصدر عن دار نينوى . 2007 عام (الأهور ومكان الحرف الأول ولوح الأيمان )الأهور وبطبعة ثالثة تحت عنوان للطباعة والنشر في دمشق

وأينما أكون تكون كتبي عن الأهور معي ، واعداد ما أصدرت من المجلة كمن يرافق عشقه الجميل في أي محطة وبين زمن وآخر وبفواصل قريبة كنت أستعيد أحلام تلك التضاريس والمناخات السومرية في .يرتحل منها واليها مقالة أو نص شعري أو قصة أو حتى خاطرة لحلم سمكة تذرف دموع العطش والملح في مياه ضحلة تعجز الأقدار والدولة أن توصل إليها مياه النهر لتعيش مع عذوبة الموج ولحظة الشوق في شباك الصيادين وحقول الرز ..الخضراء التي كانت تحتفل بنقل دياتها الصغيرة من مكان الى آخر في احتفالات بهجية من الغناء والإنشاد والمرح ظلت الأهور ومنذ آلاف السنين تمثل مكاناً مثالياً لكائنات من حيوانات ونبات ، فهي مصيف لمن لا يحب الشتاء ، ومشتى لمن لا يحب الصيف ، وكانت ملاذاً آمناً لمن لا يحب السلطة الحاكمة ، فمنذ غزو الإسكندر لبلاد الرافدين واستقراره في بابل وحصول منيته فيها ،اشتكى قادته من صعوبة قتال ومطاردة الثوار الذين لم يرغبوا بحكم المقدوني لبلادهم التي تعودت صناعة الإمبراطوريات والممالك منذ سلالة اور الأولى وحتى أحفاد سنحاريب عندما كانوا يصفون تلك المناطق المغطاة بالمياه والقصب بأنها مناطق يصعب على الخيالة الدخول .ونبوخذنصر إليها ، وكان المحاربون العراقيون يصطادون جنوده بالنبال من خلف اشنات القصب والزوارق كمن يصطاد الطير ،

ففضل أن يقف عند حدود بابل وان لا يذهب جنوباً حيث كانت أمنيته أن يجتاح مملكة فارس من خلال أراضي ميسان وبطائح سومر.

عاشت الأهوار التي تعاني اليوم من حزن عولمة القرن الحادي والعشرين وخناجر السدود الكثيرة التي وضعتها إرادات الدول التي يمر فيها نهرا دجلة والفرات وهما من يغذيان هذه المسطحات التي عاشت أزل الحضارة في صناعة الفلك لكي يخلص المؤمنين من عذاب (ع) والأساطير منذ أحلام أونوبشتم الذي يرادف أسطورياً نوح الرب وحكمه على أولئك الذين لم يذعنوا إلى هداية السماء ، وكذا القصة وردت في ذات المعنى في أسطورة الطوفان وهي تتحدث عن أماكن مغطاة في الماء ويعيش أهلها في بيوت عائمة مصنوعة من القصب وينقل أهلها التي طلبت قيعانها بالقيصر الأسود الذي كان يجلب من مدينة اور ، وذات المادة كان (الشخاتير) بالزورق الخفيف يستخدمها السومريون في بناء المعابد والبيوت كما نشاهدها اليوم في بيوت مدينة اور وزقورتها الأثرية وسقوف الأقبية في مقبرة اور المقدسة التي اكتشفها العالم الأثري ليوناردو وولي في عشرينات القرن الماضي وكانت أغلب المدن الحضارية الأولى هي التي تقع قرب ضفاف تلك المياه المحصورة بين مجري النهرين ، وربما كانت تلك المناطق قبل أن ينحسر فيها مد الطوفان وتأخذ شكلها التضاريسي والجيوغرافي الحالي هي امتداد للخليج العربي الحالي وهذا ما اعتقده وولي **أثناء** تنقيباته في اور ودراسة طبقات التربة كما أرتنا الألواح الأثرية والمسلات وما نقش على جدران المعابد والأختام إن مدينة اور قبل آلاف السنين كانت تقع على ضفاف الخليج العربي وكانت ميناءً كبيراً ، ليبقى من هذا المسطح المائي تلك الأماكن والتي ميزها غابات القصب والطبيعة الفريدة لحياة أهلها وهم يعتمدون في حياتهم ومعيشتهم على صيد السمك والطيور والمنتجات التي يدخل القصب في صناعتها ، فيما تميزت مناطق الأهوار بأنها كانت أمكنة للوعي الإنساني الأول عندما اكتشف الإنسان أفكار صناعة الرؤية القدرية للخلق من خلال محكيات الأساطير والقداسات ، وإنها أيضاً كانت مكاناً أزلياً لبعض الديانات النازحة إليها مثل الديانة المندائية التي يعتقد أنها تنحدر من أصول مناطق تقع في إيران والمحاذية تماماً لحدود الأهوار والبعض يعتقد أنها ديانة سورية. العراقية والتي هي اليوم مناطق الطيب في العمارة وإقليم الاحواز العربي في إيران وربما ثمة تبشير آخر قامت فيه ديانة سماوية أخرى هي الديانة اليهودية ، نشأت في أعالي الفرات ومدينة حران ومقام العزيز الذي يقع على ضفاف دجلة في ناحية العزيز قرب قضاء قلعة صالح في العمارة وهو مرقد لكاهن يهودي يعتقد أنه أتى إلى بابل مع الآتين من سبي نبوخذ نصر ليهود اورشليم وجلبهم إلى عاصمته بابل ، وأنه ومثله كان **ذو** الكفل في منطقة . توفي في هذا المكان في رحلة تفقدية وتبشيرية إلى أبناء طائفته في تلك المناطق . الكفل في الحلة وكلا المقامين يتبرك فيهما أهالي المنطقة من شتى الديانات ويزاران في مواسم معلومة لم يشأ أحد من الطغاة أو الولاة الجائرين طوال أزمنة العيش في هذه البطائح أن يخضع أهلها لمشيئته ومملكه ، ولهذا كانت القبائل العربية المتمردة على جبروت المستعمر منذ فارس وحتى الإنكليز وما تلاهم من أنظمة حكمت بعد الاستقلال تجعل من الأهوار ملاذاً آمناً لتجنب قسوة المحتل وظلمه ، ومن الأهوار تقود مقاومتها لذلك المستعمر

كان يهاجمنا :ففي مذكرات القائد البريطاني لمنطقة المنتفك قوله عن الشيخ بدر الرميض شيخ آل بو صالح قوله في البر والحقول وينسحب إلى عمق الهور ، أي أن القصب والماء كان قاعدته الأمانة بعد أن حرقت مدافنا دياره كلها ومضائفه

أصبح في نظر الآخرين مكاناً للعزلة والابتعاد عن المدنية ، وبسبب هذه النظرة .ميزت صفة المقاومة هذا المكان الخائنة أهملت الحكومات والأنظمة هذا المكان وجعلته يؤسس لحياته نمطاً من الحياة الصعبة والخشنة ، وتكيف الإنسان في الأهوار في حياته وخضع للطبيعة القاسية وقدرها فكان معرضاً للأمراض الفتاكة والعزلة الحضارية صاحب كتاب المعدان (ويلفرد تيسكر) ولهذا كتب . عن المحيط ليموت في صمت **تلازمة** قناعة عجيبة وعزة نفس (وهو يصف تجربة العيش من عرب الأهوار الذين يمتلكون التسمية المثيرة للجدل والتفاسير والصفات المتعددة بأنهم كانوا يشعرون مع تأثير حبة الأسيرين التي يتناولونها لأول مرة وتزِيل **عنهم** الصداح بأنها كمن (المعدان يعمل لهم سحراً من الجان ليشفيهم

المعمرة ، وهو لم يكن (الدشاديش) الذي أطلق على أهل الأهوار لقب شعب (المبتر) لا أعرف أسم المسؤول وعليه أن يعرف عن هؤلاء هم من صنعوا قيمة المكان .يبغي مديحاً لأولئك الناس البسطاء بل تقليل من قيمتهم وخصوصيته ، ومثلت حياتهم في فطرتها البدائية جزءاً **مهما** من الحياة البكر والخسبة والنقية التي أسست لذاكرة المكان تميزه بين كل بينات الأرض لتجد أوراق الدهشة تملأ دفاتر وكتب الرحالة والمكتشفين وهم يصفون حياة لا تصبغها **ألغاز** وجودها القديم ، فلقد كان القصب والماء والسمك والطيور والزوارق وحقول الرز تحكي حكاية واحدة .منذ حلم الملك كوديا وحتى اليوم

، ولقد وجدوا في بطانة هذا (أستهزأ منه المسؤول القديم) كلهم كانوا يكتبون عن براءة ترتدي الثوب المغمر كما

الشعب فيما أصيلة وثبات وحكمة والتصاقاً بقدسية الموروث وأزليته ، فعندما درست المستشرقة البريطانية الليدي دراوير حياة المندانيين فهي لم تذهب إلى حواضر المدن حيث يسكن البعض والأقرب إلى الحضارة كما في مدن البصرة والناصرية والعمارة ، بل ذهبت لتعيش معهم حيث كان يسكن الغالبية منهم في مدن الأهوار في مدن مثل قلعة صالح والكحلاء وهناك عرفت منهم طبيعة المكان وخصوصيته الاجتماعية والروحية لتكتشف أنها قد وجدت شعباً يمتلك بسمو الروح العزيزة وعشقه لذاكرة المكان وخصوصيته ، لهذا فهي لم تستغرب أن يتعلق المندانيون في المكان كما يتعلق أهله الأصليون من الأعراب الذين عانوا في فترة من الفترات التشكيك في أصولهم وراجت منذ البعيد فكرة داخل المدن القريبة من الأهوار بالخوف والحذر من هؤلاء الناس وخاصة من يطلق عليهم لقب المعدان وربما الأجانب . (أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) حتى شاع مثل يبدو ساذجاً وعصرياً ومغرضاً ذلك القول من الرحالة وموظفي الإدارة الاستعمارية البريطانية ، وحدهم من كتب وكشف عن المعدن الأصيل لهؤلاء الناس ، وربما هم قبل غيرهم من وثق بالصورة والكتاب حياة أولئك الناس لترينا المجموعة الفوتوغرافية لكالفن يونغ ، وماكسيل صوراً رائعة بالأبيض والأسود لحياة هؤلاء الناس ، وقد أضفت جميع هذه الصور ملحفاً في الطبعة الأولى وفيه يمكن أن يستشعر الرائي والناظر طبيعة الحياة ونقاء سريرة الذات التي يمتلكها أهل إككتابي عن الأهوار الأهوار وكان شيوخهم وعلية القوم عندهم من الحكمة والبصيرة وإدارة الأمور بين أفراد العشيرة أو التجمع السكاني بالعدل والمساواة ، وربما رؤية الجوع والعوز تكاد أن تكون مفقودة بين أبناء ذلك الشعب الذي لم يكن يطلب من الحياة الكثير سوى سلامة جاموسته وبقاء جبيشة القصب التي يهجع عندها سالمة من غضب الريح والمياه ، ولكن بعد أن جففت الأهوار وشحت المياه وكما هي اليوم بعد معاناتها الجديدة ، بدأ شبح الجوع والعوز والحزن يظهر على محيا الوجوه السمر لأولئك الناس الطيبين الذين استبشروا مع أحلام العودة لديارهم أن حياتهم ستعاود نشاطها مرة أخرى وإن عليهم أن يمارسوا العاطفة المدهشة مع أنغام القصب ورقصات السمك وتلك المواويل التي ينث منها مطر الحزن السومري منذ أن تحرك نوح (ع) بسفينته صوب بر الأمان وحتى الساعية لا اعرف خيالاً مزعجاً في أحلامي الجغرافية غير صورة موت شعب وطبيعة واندثار حضارة وانقراض حلم أزلي فإن تصوري عن عودة ممكنة لعالم ظل وعلى مدى عصور يضيف الى الأمكنة بهجة الأصالة والبراعة والحس التهجير وحرق غابات القصب وغياب أمصال البلهارزيا ولقاح الكوليرا يعيد (لوريات) تعذب من شظايا الحروب و لي صورة بشعة من صور القتل ، أنها تعود بسيناريو جديد اسمه سيناريو العطش

لا تمنحي صورة العطش سوى مشهد واحد يذكرني بشخصيتين رقيقتين لا يحسنان سوى الخديعة وصناعة مسن هولكو وتيمورلنك ، فوئلك الحنونين كحبل المشنقة يدركان أكثر من غيرهم إن صناعة السيف وإحراق الكتب العطش يأتي من خلال إتلاف الأنهر ولهذا صبغا دجلة بحبر مكتبات بغداد من خلال رمي آلاف الكتب في نهر دجلة فعكف الناس عن شربه لأيام فساد العطش وتلف الزرع وشحت السواقي ونفرت الدواب عن شرب مانها ، لأن ألم إحراق الثقافة منعها من الاقتراب الى الماء وفضلت أن تموت عطشا ولا تشرب ماءً صبغته أحبار كتب الجاحظ والرازي والغزالي وقصائد أبي الطيب والبحتري وترجم طاليس وكل ما سعي الى ترجمته في زمن الخليفة المأمون من معارف الفرس والسريان والروم وفلسفات الهند والصين وغيرها من حضارات تلك الأزمنة هذا العطش الماني عكس ومنذ تلك اللحظة التاريخية عطشاً روحياً على العراقيين سار معهم منذ دويلات المغول وممالكهم وحتى دخول جنود المارينيز أرض العراق

أعتبر العطش الروحي أقسى أنواع العطش ، وهاهو يضرب منطقة الأهوار بأعاصيره ، وحين يتحد عطش الماء مع عطش الروح فإن اليباب سيحل في المكان وستموت الحياة في كل أشكالها ، لهذا كان السومريون القدماء يضعون آلهة الماء في أول المراتب لأن الماء يمنح للحياة ديمومة الاستمرار ومع الهواء يشكلان ذاكرة الوجود الإنساني ، لهذا بقيت حين أتجول في روح المكان وذاكرته ابحت عن منابع تسقي حلم البشر وأنا أدون على الطين ذلك المثل وهاهما ضرعاً دجلة والفرات يقتربان من حافة . لا نعرف العطش إلا عندما تجف الينابيع :القرغيزي الذي يقول الجفاف بسبب ما يعرف اليوم بمصطلح حرب المياه

وعندما تموت المدن ، يلتحق فيها سوادها المنتشر . أن موت نهر في المصطلح الاستعماري يعني إحراق ألف مدينة حولها ، القرى والقصبات وكل عشر بيوت مجتمعة ، والأهوار تتصل بالمدن من خلال فم النهر إذن هي ربما في طبيعتها قد تموت قبل مدنها وبذلك تتعكس مع المصطلح ، إنها تحترق قبل الجميع عندما لا يكون هناك ماء ، فالمدن قد تستطيع أن تحفر آباراً في براريها وتأكُل من سمك البحر وتعوض لحم الدواب بالدجاج ، أما الأهوار فإن حتماً سيبقى القصب اليابس والأرض المالحة والصمت . مات فيها السمك والطيور والجواميس فما الذي يتبقى لها وانعدام الحياة التي لم تكن لتبتهج في يوم ما سوى مع الموج ورقصته الأزلية التي تداعب جنح البط وموال الصياد ونعاس قصب البردي

إن الروح :يقول بوذا في واحد من تعاليمه التي وجدتها مدونة على جدران معبد بوذي في مدينة حيدر آباد الهندية

العطشى تفقد القدرة على تذكر موجة النهر ، وهذا يعني إن العالم سيفقد سيره صوب النور فالماء بالنسبة لتلك الأمكنة لا يمكن الاستغناء عنه . ومثل هذا ستفقد تلك المناطق في عطشها قدرتها على السير ليس للشرب فقط بل إن الفعاليات الحياتية قائمة عليه في مجملها ، لقد كان سكان الأهوار يحملون أينما كانوا ذلك المعتقد الذي يقول نحن من الماء واليه وكأنهم ينسون رؤية الديانات السماوية القائلة نحن من تراب وأدم من فالماء يمثل الحاجة الأبدية لبناء الكيان ومعه لا يشعر الإنسان سوى بالأمان والراحة وعدم التفكير بالجوع . تراب لكن ما نراه اليوم يكاد يكون أشبه بموت بطي **ع** لتلك الحياة البرينة التي توارثت المسرة وذاكرة العقل منذ . والعوز فقديما كان أبناء بطانح سومر يقيمون مودتهم الحياتية مع الماء ، وكان شعار الحياة بدايات اللوح والكلمة والحلم في بلاد الرافدين تلك الكف التي تحمل الإناء النذري والذي يفيض ماء دجلة والفرات من جانبيه ، في دالة على أن الماء كان يمثل الحياة في كل عناصرها ، وعليه فإن الراغب في إلغاء هذا الشكل المتميز من العالم إنما يقترف جريمة حرب وإبادة جماعية ضد موجودات الوجود الطبيعي الأول الذي رسم على الأرض بدايات التفكير بمساحة سيكون المشارك في تلك الإبادة مجرماً ، وسيكون السد الكونكريتي . الود مع السماء ومع القصيدة ومع الوردة مجرماً أيضاً ، وحتى تراب السداد والعاجز عن عمل شيء ، فليس قدر تلك الأمكنة أن تموت كل يوم ، مرة من ثوراتها الحالمة وبساطتها والتشكيك في جذورها وانتانها ، ومرات من العطش ومحاوله إلغاء وجودها الأزلي .ودفع أهلها للهجرة ، كما تنقل اليوم نشرات الأخبار **عن** بدء سكان الأهوار النزوح عن مناطق سكنهم إن إعادة مشاهد سيناريو التهجير سيمثل قسوة مضافة الى تواريخ أولئك الناس الطيبين الذين مورست عليهم جميع التجارب والمتغيرات بشكلها الاجتماعي والسياسي والروحي فباتوا أقل مناعة من قبل بسبب تراكم أوجاع الأزمنة ومشاعر اللاحول ولا قوة وسط ضغط إعلامي ونفسي تشارك فيه صورة العولمة الجديدة وبراعة الهاجس الديني والروحي المغلف في بساطة القناعة في خضوعهم لفكرة تصديق وعود المسؤول ومشاريعه التي كنا نتمناها تنهض مع الفكرة الأممية المسماة العودة الى جنة عدن

ولكن يبدو أننا سنقع في الخديعة التاريخية ونقع في خانة العودة الى جحيم التصحر والهجرة والبياب ، فلا أحد قادر على منع دول الجوار من الهيمنة على ما تريد من الحصص المائية أو تجعل الماء ورقة ضد في ماندة السياسة .أعطونا جنود عبد الله اوجلان ونعطيك ماء دجلة:بمن يقول وصل الأمر عند الجيران الأتراك القول

واحدة من مفارقات التاريخ أن ترتبط حياة سكان الأهوار في حياة عبد الله اوجلان حيث لا رابط تاريخيا ولا **PKK اجتماعيا** بين الهور ووجلان ، فالرجل ثوري من أكراد تركيا يقود حركة انفصالية ضد الدولة التركية بأسم تمارس نشاطها في جنوب تركيا في مطلب منه لأقامة حكم ذاتي لأكراد تركيا ، وفي حالات تعبوية معينة تلجأ قواته للمنطقة الحدودية مع العراق لوعورتها وصعوبة قيام عمليات عسكرية ضدها من قبل الأتراك فكان الاتهام الدائم إن العراق يدعم هذه الحركة ويؤويها بالرغم من أن زعيمها اوجلان معتقل لدى الأكراد منذ سنين بعد عملية خطفه من قديماً مر على خاطر الكثير من أبناء الأهوار أسماء بدت غريبة . طائرة في مطار كينيا من قبل الكوماندوس التركي على مسامعهم ولكنهم بسبب المعايضة والاختلاط والانتباه ألقوا وعرفوا رمزيتها ، وغالبا ما تكون هذه الأسماء ثورية مثل جيفارا وتروتسكي ولينين وغوركي ، وتلك الأسماء عرفت من خلال معتقد المعظمين الذين يتم تعيينهم أو لكن اوجلان يعرفونه الآن مع عولمة الدبابة والسدود . نفهم الى مدارس الأهوار النائية واغلبهم من الشيوعيين ، فلقد استخدم ضدهم كورقة ضغط في حرب ليس لهم فيها لاناقة ولا جمل ، لكن العطش تسرب إليهم وبانت ملامح الهزال وعودة أمراض الماء المالح والملوث تعود الى أبدانهم وكذلك الى جواميسهم التي ابتليت بأمراض غريبة وبدأت ضرورها تجف وتحول سعر القيمر الى خمسة أضعاف سعره بسبب غلاء الأعلاف والأمصال وظروف التربية التي احتاجت من المربي أن يشتري حتى الماء بواسطة السيارات الحوضية ليوفر لجواميسه قبولة الماء التي تعودت عليها وتحفظ جلدنا من التشقق بعد أن كانت تلك الحيوانات الغنية بالحليب واللحوم تعوم وتغطس وتمرح في تلك المستنقعات الزرقاء منذ **بدء** خليقة البلاد وحتى بدأ عمليات التجفيف في بداية تسعينيات القرن الماضي.

ويبدو أن المكان ومنذ القدم مرتبط بمزاج السياسة وهوسها الذي لاينتهي ، ويبدو أن **أحدا** لم ولن يفكر في حياة أولئك المجددين لوعي الحضارة الأول من خلال كون بطانحهم كانت مهبطاً للكثير من رسالات السماء ومكاناً مثالياً لحلم الأرقام العاشقة في تدوين أساطيرها ، وربما الأهوار التي ترينا من خلال ما تبقى من جداريات واختام ونصوص مسمارية أنها كانت مكانا مفترضا لجنة عدن ، وأنها وعلى امتداد مسطحاتها المائية كانت مكاناً مهيباً للكثير من السلالات والممالك العظمية وأنها **من أولى** مناطق الشرق التي عرفت نظم الري وسن القوانين والإبداع وطالما حلم أبناء الأهوار بفك هذا الارتباط لكنهم يجبرون على أن . الحرفي وغير ذلك من المناشط الحضارية الأولى تكون لهم إزاء هذا الإجبار الحياتي أن يتخذوا من المقاومة سبيلا للتخلص من الهيمنة السياسية ومحاوله إخضاع ربما لأن أهل الأهوار وبسبب جغرافية وجودهم وبينتهم يمتلكون القناعة إن الانتماء . المكان لسلطة الفرد والحاكم



الى الماء والبساطة والعزلة اجمل بكثير من الانتماء الى المجتمع الحضري الذي يتطلب منهم الولاء للفرد والعيش ضمن الأنماط المجتمعية الصارمة التي قد لا تُقدر حلم سكان الأهوار بمدى اعتناقهم لفكرة مطلق المكان الذي لا التي يضغظ (العطابة) يحوي سوى الطير والقصب والماء والسمك والقدرية العجيبة التي يعتقدون فيها إن جمرة فيها على راس المريض رغم نارها المستعرة هي وحدها من تشفيهم من كل الأمراض  
 لن تستطيع أن تشفي مرض هذه البقاع سوى عودة الماء إليها بتلك الوفرة كان فيها فيضان (عطابة) الآن مليون دجلة والفرات يغذيها في أيام ربيع العمر ويحولها الى جنة من البط والشبوط والأبوذييات وطقوس فرح تعود بهم الى تلك المواسم القديمة التي كان يرش فيها رذاذ ماء النذر على مواكب الأعراس والختان والكهنة وطقوس التعميد المندائي وتلك التي درج عليها شيعة الأهوار ومنذ منات السنين على تذكر واقعة الطف ويومها السابع من وهكذا . خلال **ملء** القرب المتقوبة بالماء وامرارها على الرؤوس ليتذكروا عطش الإمام العباس (ع) والتبرك فيه يرتبط مرة أخرى عطش روح المكان بعطش الثورة ونكران الذات ، فيتلامسا لتبدو لنا الأماسة بشكلها التراجيدي حتى تحس أن المكان يضحج برموز التحول والمتغير والمخاض منذ زمن ثورة الحسين (ع) وحتى قبعة جيفارا وبنديقية حمد ابن الأهوار الذي خلده الشاعر مظفر النواب في قصيدته الخالدة والمغناة بصوت المطرب ياس خضر (الريل وحمد )

عطش العباس وعطش الأهوار تعني في الذاكرة الجمعية لسكان صورة واحدة لمأساة ظلت تلاحق القضية الروحية ولهذا تستعاد صورة العطش **العاشوراني** مع صورة عطش تلك القرى التي . لمن سكن في وجدانه الى المذهب اكتسهاها الطين والقصب ولكنها داومت على تعليق الرايات السود على بواباتها كدليل على فكرة التواصل مع تلك المظلومية القديمة التي عانى منها الحسين - عليه السلام - واهله وتحمل بسببها العطش والقتل والسبي ، والنتيجة مدن تعطش وأمام عطش وكانات حية تعطش والمحصلة صورة لتراجيديا سوداء رافقت المكان وأثارت فيه شجون وجوده منذ الحكم الأموي والى اليوم

هذه المدن المتناثرة مثل دموع المطر على نوافذ العوز بقيت تقاوم حتى حرمانها من سبل الحياة الكريمة ، فأكثر أرياف العالم تمثل المناطق الغنية في بلدانها إلا أرياف الأهوار ومدنه فقد كان الفقر ينخر في أزمنتها مثلما تنخر الخشب وجذوع النخيل والقصب الذي يتألم من شح الماء ونضوبه ، فلم تعد تحتفي بعيد كما في (الأرضة) (دودة (الخماز) بقية أنحاء أخرى من العالم ، ويمكننا أن نضع حزن واحدة من هذه المدن العطشانة والمسماة مدينة نموذجاً لقراءة حزنها في اللحظة التي كان العالم يحتفل بأعياد الميلاد **ورأس** السنة الجديدة  
 هكذا كنت أقرأ عطش تلك المدن التي كنت أعيش في فردوسها القديم وامارس هواية صناعة الحلم ، وحين حطت وقرها المانية وحزنت لبلاد (الخماز) راحلتي في مدن النيون والأمن والهدوء وفي ليلة راس السنة تذكرت ناحية تمتلك اكبر مخزون للنفط في الأرض ولم تستطع أن توفر لمندنها **حلم شجرة الميلاد** ومصايبها الملونة برغبة الأطفال والآباء في حياة هادنة وكريمة ، حياة لا يموت فيها البشر من الشظايا والعطش والرصاص المثلث وأقبية الزنازين ، فكانت قراءتي عن حلم مدينة تريد أن تتخلص من عطشها وحزنها كما يريد الطفل الأوربي هنا أن يتخلص من سعادته الطافحة **بالنيونات** والألعاب النارية لدورة سنة جديدة

أو كما يسميه أبناء (نيكلوس) أو الأب (سانت كروز) هنا في أوربا ، وفي خلسة من النجمة المستيقظة سينسل عبر النوافذ العلوية لغرف الأطفال ، بدلتهم الحمراء ولحيته البيضاء وكيسه المليء (بابا نونيل) الأهوار العراقية بالهدايا ، ويضعها قرب وسائد النوم وهو يتمنى لهم ميلاداً مجيداً ليوم ولد فيه السيد المسيح ع ، فقط لينثر بذرة ..الخير على الأرض وتنمو وردة السلام

أعوام يمضي هذا الشيخ الطيب في طرق كلها تلوج (5) من بيت لحم في فلسطين الى وسادة مريم أصغر بناتي وسرف دبابات و**أنغام مصائد المغفلين** وشوارع لم تزفت بعد واحياء صفيح لحياء وقرى من القصب والطين وفيلات فارمة في منتجعات أثرياء الرحمة ليصل إلى هذه المدينة الهادنة في الريف الألماني ويسأل عن سومرية برينة هجرها مزاج الزمن المتحاصص وغياب الشعور بالراحة وأنت ترتدي القميص الملون ليهدئها **قطعا** من حلواه الشهيرة ودبة القطني السمين وقبلة إنسانية ليس فيها شهوة ، هؤلاء الذين يختطفون الطالبات الجامعيات في بغداد ويفعلون ما يفعلون ببأس البرابرة وبراءة المغول وتشريع ما شرعه الله في نفوسهم المريضة وبالتالي يطلبون الفدية من **دويهن** ، وربما إذا كانت المختطفة غير مسلمة يجبرونها على نطق **الشهادتين** ، فيصير العرس نورانيا والمختطف الطيب يصير مثل فاتح ومبشر وقديس

(كم بغداد 360) تقع ناحية **الخماز** في منطقة هور **الحدود** الإدارية لمحافظة ذي قار - جنوب العراق ، وهو واحد من اكبر الأهوار العراقية يلتقي شمالا بمسطح مائي مع هور الحويزة في الجانب الإيراني عبر امتداد هور الجبايش ، وعاش هذا المكان تاريخاً مضطرباً منذ أقدم العصور بسبب التكوين المجتمعي المنعزل لسكان الأهوار ، ولهذا كانوا ومنذ الأزل بعيدا عن أي خدمة حضارية ومدنية ، ولكن هذه العزلة صنعت شعباً عنيداً احب

حياته وطقوسها ونال القناعة الأزلية بأن ما يأتي به الله هو ما تقدره قناعة الروح ولهذا كانت تفتك بهم الأمراض العثماني إلى مدافع النمساوي لم ترهب فيهم لحظة (الدان) ويموتون بصمت وقناعة ، وحتى شطابا المدافع منذ بتجفيف هور الخمار ، وهو إعلان (الموقر) الوجود ، لكن وجودهم اهتز مرة واحدة عندما صدر الأمر الرئاسي رسمياً وعلنياً في اغتيال طبيعة والذهاب بها قسراً إلى الانقراض حتى صار في قناعة أحدهم أن تصبح الأهوار مثل الديناصورات منقرضة ولا تعود إلى الحياة أبداً ، وصار الحنين إلى صورة سمكة الشبوط مثل ذلك الذي يحن إلى أغاني الشباب وذكريات عشق الصبا

أهل ناحية الخمار بسبب شمول عالمهم برحمة الموبائل والصحون اللاقطة التي علت سطوح بيوت الطين والقصب في منظر لا يخلو من المفارقة أن تدخل روتانا وأغنياتها الساخنة بيوت أولئك الفقراء صاروا يشاهدون العالم كله الرطب عندما يحتدم الحوار حول (الشرجي) وهم ممددون على سوابيط القصب ، ولا يهمهم لسع البعوض ووخمة العراق في برنامج صاحب كالاتجاه المعاكس لقد فتح العالم لهم نوافذه ، ولكن هل استفادوا من محاسن العولمة وإشراقه ابتسامة المذيعات والإعلانات الخرافية ؟ . عن تسويق عطر فرنسي أو فرشاة أسنان

**أظن** انهم بسبب تراكم قرون الفطرة والعزلة مازالوا مشدودين إلى تلك البهجة ، وبعضهم صار يترك علف في المسلسل التركي المدبلج ، وربما صاروا يحلمون كما خلق الله (مهند) جاموسته لأجل أن يكمل قصة الوسيم لكن بابا نونيل يخاف على نفسه من مخاطر . في العالم المتمدن بأن يأتي إليهم سانت كروز بهدايا الميلاد المجيد الطريق والفتاوى ، وأشياء كثيرة قد **يشك** فيها مدير ناحية الخمار مثلاً أنها تفتح عيون أبناء المدينة فيكثر الطالب يتمنى قبل الهدايا أن تتحسن أوضاع :والمطالب ، وعليه أنا نفسي تمنيت لرجل الثلج أن يذهب هناك ، فكان رده الناس هناك ، يشربون الماء الصالح للشرب ، وتصلهم الكهرباء ، تعبد الطرق وتبنى المدارس والمراكز الصحية ، فليس من المعقول أن يملك ابن ناحية الخمار أحدث جهاز موبائل وهو يسعل في الصيف والشتاء وما زالت آثار ومازال العطش ينهش في .البهارزيا ظاهرة عليه ، ومازال طاعون الماشية يهدد جواميسهم وما يقتاتون عليه .أمكنتهم التي ما تعودت يوماً على فراق الماء

ربما الدولة مثل بابا نونيل تفكر بإنقاذ هكذا عالم وضعته اليونسكو ضمن محمياتها الدولية ، وعليه ينبغي أن تصير هي المعمر لهذه الناحية وغيرها من مدن الأهوار ويصبح السيد وزير الدولة **لشؤون** الأهوار هو بابا نونيل ، لتكون هداياه بدلاً من النسائل والديبة والعصافير ، مدارس حديثة ومرافق سياحية ومشاريع أعمار ، أهمها مجمعات سكن .لا يدخل من نوافذ بيوتها البعوض والحرمس ورائحة روث الجواميس هذا الشعب الأزلي ، والذي صمد مع حضارته كل هذه العصور ، يحتاج مني أنا وسانت كروز والأمين العام للأمم المتحدة التقدير والثناء

هكذا كنت أحلم من أجل تلك المدن التي فقدت عذريتها وسحرها بسبب قدر البلاد وطموح ولاتها واحزانها التي صنعها براءة وفطرة الولاء للمرجع والمذهب وحسن النية تلك التي تزامن وجودها في الذات العراقية منذ أن **وطنت** عليهم )أقدام آدم ع هذه الأرض ومنحها من بعده لذريته الفاضلة نوح وإبراهيم ولوط وأيوب ويونس والخضر وغيرهم من أنبياء و**قديسي** بلاد الرافدين ، من ولدوا على ترابها ومن وفدوا إليها مبشرين ومصلحين (السلام) .وأباطرة وملوك واصحاب صحائف شعر وفلسفة وحكمة وأساطير

المدن التي كانت وما زالت تمسك رباطة الجأش وترفض أن تموت لأن وجود هكذا مدن مرتبط بأحلامها دون سواها فقد أسكنتها خصوصية بينتها وتاريخها مثل هكذا هواجس عاشت معها تتحمل تداعيات كل ما كان يحدث حتى إنها امتلكت زيادة احتضان واحدة من أقدم المقدسات الغنوصية في هذا العالم وهي الديانة .فوق هذه الأرض المندانية التي تعتبر المضاد الروحي لهاجس العطش كونها تعتمد في ممارسة طقوسها والتعميد على الماء أولاً ، وهذا يعني أن المندانيين احتموا في المكان لأنه يمتلك الماء الوفير ولم يكن في فكر أي واحد منهم أن يلف العطش تلك الأماكن وتختفي قراهم ومحلاتهم أو تكاد تضحل وتعاني من الكثير من إشكاليات وجودها الحضاري والوطني فوق تلك الأماكن ، ومثلما دعت اليونسكو للحفاظ على بيئة الأهوار وخصوصيتها ضد ما يلحق فيها من أذى من تجفيف وتعطيش وتهجير تتعرض المندانية أيضاً ، فهي تلتصق بتاريخ المكان حتى أقدم من ساكنيه الحاليين إذ زامن المندانيون أهل سومر واكد في مشاركة العيش ولديهم ما يثبت من الكتب والنصوص القدسية انهم أتوا من ظهرانية آدم ، ولم يبرحوا المكان إلا عندما كانت الظروف القاهرة تجبرهم على ذلك ولكنهم سرعان ما يعودون فليس هناك من أمكنة تقتل عطش المنداني سوى تلك البطانج التي **تروي** البط الذي يفضله غذاء والرز الذي يصنع منه غذاءه المقدس والماء الذي يمارس فيه التعميد من زواج وموت وولادة واكتساب الطهارة للجسد وتعميد رجال الدين في درجاتهم الكهنوتية المختلفة

فكانت تلك الدعوة الى المنظمة الدولية قد حملت من كاتب المقال شكلها التالي إزاء ديانة وطائفة تريد أن تتجذر أبداً

مع المكان ولا تريد أن تموت عطشا أو تهجيراً أو ذبحاً طائفاً  
 المندائيون طائفة غنوصية يصبغها صفاء قناعتها أن النور للروح قبل الجسد ، وللفرديوس قبل حياة الأرض ،  
 ويعتقدون أيضاً أن الذهب زينة الدنيا عندما يكون من عرق الجبين ، وهمسة العاشقين ومهارة أصابع  
 وهم اليوم في العراق يتناقصون ويشحون كما ضفاف يعطش لجريان الماء ، وأظن أن العراق لن يكون .. المندائي  
 فهم يمتلكون في هذه السهول والبطائح أزلاً لا يُعرف . عراقاً بدونهم أو بدون غيرهم من سكان البلد الأصليين  
 تاريخه لأنه يعود حتى الى أول الأنبياء ، أي انهم كانوا حتى قبل ولادة حرف الكتابة ، وكانوا في أزمنة غابرة أقدم  
 يسكنون بطائح الماء ، وينزلون في خشوع صلواتهم ، ويتجولون بين القرى المتباعدة في . حتى من الزقورات  
 مدن القصب والسمك ، يقرؤون الطالع ويشفون الجرح ، يصنعون من لمعان المعادن ابتساماً للنساء  
 والمخشلات والأغراض المطلوبة لبيت الزوجية ، ويُحتمل أيضاً أن المندائيين الصانع الأوائل للكاس النذرية التي  
 جعلها السومريون شارة وجودهم عندما رسموها والفراتان يفيضان منها .

والمندائيون الأقرب الى الماء الطاهر كونه ضرورة من ضرورات التعميد ، فقد يسودُ الظن انهم ليسوا صاغة  
 للحلي فقط ، بل كانوا من صناع المنجل والمطرقة والأواني التي كانت تجرى فيها مراسيم التعميد وطقوس  
 العبادة ، وربما حتى قيثارة شبعاد بصندوقها الذهبي المزخرف بالأحجار الكريمة والعاج قد صنع وصمم من قبل  
 . ( ع ) مندائي ما كان يعيش مع ملته بين ظهرائي أهل سومر وحتى قبل أيام إبراهيم  
 وهذا دليل أن صحت . ( ع ) وقد فُسر التصاقهم بالماء ، بأنه قد يعود في أصوله وجذور المعتقد الى طوفان نوح  
 تلك المرجعية ، على أنهم من الموحدين الأوائل ، وهذا التوحيد الوثوق فيه تأكد من خلال الذكر الحكيم في أكثر  
 إن الذين )) من آية عندما ساوى الصابنة مع أهل الذمة من النصارى واليهود وكما في سورة المائدة قوله تعالى  
 آمنوا والذين هادوا والصابون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم  
 ، هذا التشريف الإلهي يمنح الطائفة وثوق القوي في الدفاع عن خصوصيتها وديانتها ووطنيتها ، بل ((..يحزنون  
 أن المندائي لن يحتاج إلى أي حجة أخرى لوحدانيته بالرغم من أن كتبهم المقدسة والمتوارث من أدعية الصلوات  
 ويعني الكنز العظيم ، فيه الكثير من السور والتلاوات (الكنز ربا) والتعميد وأهمه ما جاء في كتابهم المقدس  
 والأدعية والتصوير والقصص والحكم والشواهد ، ما يدل على أن هؤلاء القوم ينتسبون الى الفكرة السماوية  
 والذي يتمن في قراءة آيات الكتاب وسوره سيكتشف ..، نريته ليكونوا صالحين ( ع ) الأولى التي بشر فيها آدم  
 القيمة والمعنى والدقة في تعامل المندائي مع خالقه ، لأن تعاليم الكتاب لا تحيد عن الذكر ومشاركة الإله الواحد  
 في جميع أفعالنا حتى التي تأتي بواسطة الملائكة الصالحين ، وهي في أغلبها تفقد المندائي الى ديمومته وصلاح  
 ، الذي يعتقد فيه المندائيون روحاً نورانية تهدي الى الصلاح والخير (زيوا) نفسه ، كما في الوسيط النوراني  
 وكان (ص) والفضيلة ، كما في الملاك جبرائيل عند المسلمين والذي نقل رسالة الوحي الإلهي الى النبي محمد  
 .وسيطا لتلاوة ما يؤمر به النبي ويوصى ويُنزل من آيات القرآن الكريم  
 يُوثق المندائيون تواريخهم بشيء من الحذر والحصانة ، لشعورهم بأن الأزمنة بتعاقبها لم تكن عادلة معهم ، أي  
 أنهم بسبب عصامية الحفاظ على الإرث وتحاشي تجربة الاندماج الديني والمجتمعي مع الحضارات الأخرى ،  
 وإصرارهم على الإبقاء على الإرث بذات الصفاء والتداول الحصري بين الطائفة ، وعدم تأثرهم بأي متغير ديني  
 وطقوسي وتقبلهم الصامت لكل فعل ورد فعل إزاء ما يؤمنون به ، تحملوا الكثير من المصاعب والإهمال وبعضها  
 وصل الى حد المجازر ومحاولة إفنائهم بحجج تأخذ طابعاً دينياً في بعض الأحيان وعرقياً متطرفاً في أحيان أخرى  
 ، وفيها الكثير من التجني على أساس أنهم من عبدة النجوم ، والبعض ادعى أنهم من ارث الزرادشتية مستنداً الى  
 الأصول السكانية الأولى لهذه الطائفة عندما كانت تجمعاتها السكانية في منطقة دهلران والبطائح الممتدة في  
 وبعضهم أستند الى تأويل بعض العادات والطقوس دون .منطقة الطيب والأهوار المشتركة بين العراق وإيران  
 معرفة الجوهر والمدونات المقدسة لهذه الطائفة ومنها كتاب الكنز ربا وتعاليم يحيى وغيرها ، ولم ينتبهوا في  
 هذا التعامل القسري الى أي نص قرآني يؤكد على أن الصابنة من أهل الذمة ، وهم في هذا موحدون ، وتلك  
 مسألة أخذت من دراستها وطراً في محاولة السيد علي الخامنئي دراسة تاريخهم ومرجعيتهم الدينية ، وله في هذا  
 الأمر فتوى قاطعة واستنباط موثق في رسالة بحثية على أن الصابنة المندائيين أصحاب كتاب وهم من أهل  
 التوحيد .

لم يفتح المندائيون على ضرورة التعريف بجوهر ديانتهم إلا في أواسط القرن العشرين عندما سمح مشايخهم  
 المختصة بالدراسات واللغات الشرقية القديمة بالإطلاع على بعض أسرار (الليدي دوورا) للمستشرقة البريطانية  
 الديانة والمعتقد والعيش معهم لمراقبة ممارسة هذه المعتقدات عن قرب ، كما سمح لها بالإطلاع على محتوى  
 الكثير من الكتب المندائية المقدسة ، واغلب معاشيتها مع الطائفة تلك التي قضتها في منطقة الكحلاء في العمارة  
 وبعض المناطق وبمساعدة كبير مشايخ الطائفة في العمارة ، وخرجت بحصيلة وفيرة من المعلومات والانطباعات

دونتها في كتاب ونشرته ، بعد أن ألفت الكثير من المحاضرات في المعاهد والجامعات البريطانية ، وهي تتحدث عن هذه الطائفة ومكوناتها الاجتماعية والدينية ، وقد ترجم الكتاب من قبل بعض المثقفين المندانيين في مقدمتهم وصدر في أكثر من طبعة وآخرها الطبعة التي صدرت عن دار المدى في (غضبان رومي) المربي المرحوم 2007دمشق عام

اليوم هذه الطائفة العريقة والتي يكن لها العراقيون الاحترام في مجمل أعرافهم وطوائفهم وخاصة الطائفة الشيعية التي جاورتهم وتعايشت معهم على مدى عقود وخاصة في مدن الأهوار وقراه ، تتعرض لخطر الانقراض داخل بعد أن أخذت الالاف المؤلفة من العوائل المندانية في هجرة تكاد تكون جماعية بسبب النظرة .الوطن الأم القاصرة والمتطرفة التي ظهرت بعد الاحتلال **تجاه** الاقليات والأعراق الدينية مشمولة بالكثير من الآراء الباطلة والتكفيرية والوحشية وصل الى الحد اغتيال الكثير من أبناء هذه الطائفة وبعض مشايخها وخاصة في مدينة بغداد ، مما اضطرهم الى الهجرة عن بلادهم وهم الأكثر شوقاً للبقاء فيها ، والمساهمة في رقيها بعدما كان للسجل الحضاري العراقي أسماء مندانية كثيرة طرزت عليه إبداعها وتآلقها حيث يشهد للمسيرة التربوية الحديثة في العراق منذ نشأتها في أواسط القرن التاسع عشر ظهور طاقات علمية وتربوية ساهمت في تربية النشء الجديد كما تتشرف الطائفة أن .وخاصة في مدارس الجنوب العراقي وفي الأخص **محافظات** العمارة والناصرية والبصرة يكون من بين ظهرانيها العالم الدكتور عبد الجبار عبد الله أول رئيس للجامعة العراقية في العصر الحديث ، وغيره من مبدعي الكلمة والقلم والطب والفلك والفن والعلوم الأخرى

إذن المندانيون وعرب الأهوار كانوا يشكلون وحدة المكان السكانية بالرغم من انهم أقلية تتجمع في مساحات لا يشاركهم فيهم السكن من غير ملتهم ، ولكنهم أقاموا مع المحيط السكاني المجاور علاقات حسنة وساهموا مساهمة فعالة في تطويره وتحضره عندما كان المعلمون المندانيون هم من رواد النهضة التعليمية في مدارس الأهوار الذي شاع انتشارها في أربعينات وخمسينات القرن الماضي عندما بدأت الدولة في الإكثار من تأسيس الوحدات الإدارية في تلك المناطق من أجل المساعدة في إيصال الخدمات الاجتماعية كالتعليم والصحة والبلدية بعد أن نبهت الدراسات والرحلات والمعاشية التي قام فيها الكثير من الأجانب الى الوضع المأساوي لسكان تلك المناطق.

نشأت حواضر مدن الأهوار ولكنها لم تتطور وظلت معاناتها في نقص الخدمات توازي تماماً معاناة تلك القرى المائية العائمة في وسط الهور واطرافه ، بل صارت بعض تلك الحواضر الإدارية تضايق حياة تلك المجتمعات المائية عندما شكلت فيها مراكز الشرطة والمقرات الحزبية وكتنات الجيش وغير ذلك مما لم تتعود عليه تلك المجتمعات ، فإلى ستينات القرن الماضي كان الكثير من سكان الأهوار ممن يفضلون عدم مراجعة الدوائر المدنية للحصول على وثيقة تعريف لشخصيتهم فهم يولدون في المكان ويموتون في المكان ذاته ولم يتعودوا السفر .والخروج الى ابعد من اقرب حاضرة مدنية ليراجعوا فيه المشفى في حالات طارئة وخاصة فقط لهذا فإن الدعوة الى إبقاء خصوصية المكان وروحه المصبوغة بالبساطة ورغبة الانتماء في الطبيعة البسيطة الهادئة ينبغي أن توازيها الرغبة في إنعاش المكان وإيجاد الحلول لبقائه مكاناً مائياً يحتضن من سكنه من دهور بعيدة ويوفر لهم ما تعودوه من الحياة منذ أزمنة أجدادهم أهل سومر وحتى اليوم

دعوة هي أهم ما يفترض أن يشغل بال الدولة بعد الأمن ، فإحياء المكان هو جزء من أحياء واحد من أهم المشاريع الوطنية على أساس أن هؤلاء الناس قد دفعوا ثمن الإصرار على البقاء وعدم مغادرة ديارهم إلا عندما **هددها** العطش والجفاف وبذلك يكون سكان الأهوار من ضمن الشرائح الاجتماعية والسكانية التي تعرضت للإبادة ،فإذا كانت المدافع وسدود الأمس أبادت فيهم رغبة العيش في موطنهم وهجروها عنوة ،فإن العطش الذي يعاود المكان اليوم هو جزء من إبادة جديدة

أنه فصل من دراما وتراجيديا وطنية تسيدها العطش ويتألم فيها الإنسان والحيوان والنبات الطبيعي وسيؤدي هذا بالطبع الى اندثار وانقراض واحدة من اقدم أمكنة التحضر الإنساني ، وسيفقد المكان خصوصيته ويصبح تراث المكان رهين قاعات المتاحف كما الحضارات التي كانت تعيش عليه

لأجل هذا سيظل جزء من أمل السنونو القادم من مناخات البلطيق الباردة والليل الاسكندنافي الثلجي أن يذهب العطش بعيدا عن تلك الأماكن الساحرة ويعود في الشتاء القادم ليجد الماء يزهو وسط **سير** المشاحيف واغنيات .....مربي الجاموس وصيادي الأسماك والأطفال السمر الحفاة

## الفصل الخامس

### .....مقدمة لتاريخ مدينة الناصرية

أتخيل حياتي التي ذهبت كما غيمة شاخت وناحت وهامت على عشب الذكريات تطرز للشيب دمع التوجع في ابتعاد صعلكة العولمة وشخير الدبابات والورد الذي :البلاء ، وحزن العباد ، وأشياء أخرى يسميها مالك ابن الربيرتدي الشورت القصير ويكتب بلاتينية قديمة أبيات الابوذية وخطابات لينين لم أجد في لساني اليوم عنوية النطق وقد فارقت الضاد بحكم القوي .في اللغة أعذب الكلام ما ينطقه القلب لا اللسان وهاجرت إلى قاموس غوته أفتش فيه عن جملة أدبر فيها حالي أمام الجميلة موظفة دائرة الهجرة ، فيما قلبي خفت خفقان الحلم فيه بعدما ابتعدت أصابع الشوق عن ملامسة خد الموجة ودمعة العصفور ورصيف الشارع وفرن هو المطر اليومي وعجائز بمظلات مزركشة ، وفرقة نغماتها مصنوعة من ..ما تلامسه هنا ..الصمون الحجري أزمنة الفاينكغ وليس فيها شيب من بهجة خريف الفوانيس ومواسم حصاد القمح ونواح شهداء الحروب وشاي...المقهى

بقيت تلك الأساطير عند من ظلوا هناك يلوكون حسرة لم الشمل وعودة شاشات السينمات الصيفية والكتب المستعارة من المكتبة العامة ، هذا البقاء الذي وفر لهم مساحة قليلة من الأمل بأن يعاش العمر كما تريده أفنذة القلوب لا كما تريده الفلسفات الفجة التي تعقد بأن كاتم الصوت والخنجر الغادر والعودة إلى داحس والغبراء هما الحل الأمثل لصناعة مملكة تعدد الزوجات والولاية والوصاية وماعون الثريد أولئك الذين تركتهم هناك ، الصديق والعشيقة وعابر السبيل وزميل الدائرة وموذن الجامع وشرطي المرور وبناعة القيمر والقهوجي وعضو قيادة الفرقة السابق وسانس عربية الخيل وبناع الصحف اليومية يعيشون أزمتههم بقدر ويعني هذا انهيار الحكم السابق ومجيء المحتل (سقوط النظام) مركب ومرتبك نتاج ما نسميه في التداول اليومي ومعها الساسة الجدد الذين بشر بهم رامسفيلد ونتمنى أن لايبشروا به ، لأنه كما نابليون جاء بمعادلة الرياضيات ولكن عن طريق حربة البندقية ، ولهذا تاه هؤلاء الطيبون بين القبول والرفض وساعات القطع المبرمج الذي وفي كلتا الحالتين فالتمنى لن يأتي كما المشتى ، الذي يعانون منه من تسعينات القرن الماضي وحتى الساعة يجيننا دائما ما كان يجيء قبلنا لأهل سومر وبابل وأشور ، واغلبه خيول لغزاة وحكام طغاة وشيب من خيال جنائن

معلقة وأماسٍ لربيع قصير كتبنا فيه الأساطير وقصائد الشعر الشعبي وبعضاً من دواوين الشعر الحر وأغنيات الريف ، وغير هذا فنحن مسحورون بالهاجس الصعب والذي فيه اكتشفنا الكلمة وبسببها دفعنا الثمن غالياً منذ احتراق أور وحتى احتلال بغداد

بناها مدحت باشا وهدمها جنرالات . (كلم جنوب العاصمة بغداد 360) تقع مدينة الناصرية في الجنوب العراقي الحروب والمقاولون الجدد وغبار موسم الصيف الطويل ، وبالرغم من هذا فهي واحدة من مدن الابتكار الكوني إذ تفتخر بأنها واحدة من منازل الخليقة التي آوت بحنان الرب هواجس لطفولة أكثر من ولي وقديس ونبي ، ومنهم كم عن المدينة ، وفي واحدة من قصباتها سطر أيوب 15 إبراهيم الخليل الذي ولد في أور التي تبتعد بظلالها الرملي أسطورة الصبر السومرية ، واشتغلت ذاكرة البشر على كشوف الحضارة ، من الكتابة والنحت والفلك وحتى صناعة الإمبراطوريات

بنيت المدينة في القرن التاسع عشر ، وبهندسة رجل بلجيكي خططها باستقامة ممتدة على طول أذرع الأفق ، لتصير شوارعها امتداد المستقيم تحت خط العين والبصر ، هذا الخط الذي مشت عليه خواطر أبناء المدينة من المبدعين ، وكانت الحجره الرخيمة أول نتاج أحلامها بفضل الطبيعة الساحرة للمكان المظلل بغابات النخل الغافية فكان القرن العشرون هو قرن التحولات للمدينة عندما . على طول نهر ضفاف الفرات الذي شق المدينة إلى نصفين أسست فيها المدارس ، واحدة للذكور وأخرى للإناث ومن بين معلمها العرب واليهود والصابئة والمسيحيون ، وهذا دليل على أن المدينة منذ بواكير وجودها حديث كانت مدينة للتآخي والإلفة بين المذاهب والأديان ، وكانت فيها محلة كبيرة لليهود وأخرى اكبر للصابئة المندانيين وفيها عوائل كثيرة من أصول فارسية وتركية وكردية وهندية الواقع حتى هذه الساعة قرب صيدلية الحكمة في (علي ندبه) وحتى عوائل أوزبكية أو قوقازية كما في بيت فيما يعد الشاعر المعروف عبد القادر الناصري . شارع الحبوبى وهم من سكنة المدينة منذ مطلع القرن الماضي راندا للحدثة الشعرية في المدينة ومن المجيدين في كتابة الشعر وهو أصلا من عائلة كردية نزح أبوه من مدينة السليمانية وسكن الناصرية

ولدت مدينة الناصرية من عاطفة الوالي ونارجيلة المتصرف ورغبة العثمانيين في إغراق المكان لحظة التمرد والعصيان ، لهذا كان تأسيسها بمكان أقل من مستوى النهر ومناسب فيضانه لرغبة في لجم ثورات أبناءها بثورة الماء فكان عليها أن تعاني وحتى ستينات القرن الماضي من الفيضانات الموسمية ويتذكر أهل المدينة ، غضب أبو ..جداحة وليالي السداد ومواويل القمر في الليل الذي كان يحتضن سهر الأبناء على مدينتهم الغريب إن أغلب الذين يخططون لتأسيس المدن يتركون يوميات التفكير بولادة المدينة منذ حفر أسس بناء أول بيت أو مبنى وحتى إكمال بناء السور الذي يحميها ، لكن المهندس البلجيكي لم يترك ورقة واحدة ولم يعرف عن يومياته في المدينة وربما خططها دون أن يرى المكان وبالرغم من هذا فقد منح المدينة حدثة التمرد لتكون شوارعها دون أزقة مختنفة ولها امتداد يتسع مع الخطوة ، وبمحاذاة ضفتي الفرات أسس أبنية وشارعا طويلا ليأتي ناصر باشا السعدون ليضع يافته المتصرف الأول (السراي) وعلى مسافة ليست ببعيدة بنى دار الحكومة للمدينة وليبنى أول جامع فيها مازال قائماً حتى هذه الساعة ، ومن ثم نمت المدينة كما تنمو سنبله القمح ولتعيش عمرها بين مد وجزر وليسكنها الفقراء والأغنياء على حد سواء ولتهرع إلى ليلها الساحر بظلال النجوم أحلام الريفيين الذين ملوا أزمنة الجفاف ورخص الغلة ليعشوا فيها عمالاً إجراء ، أما موظفوها وأغنياءها وطبقتها الوسطى فقد تعددت مذاهبهم وأصولهم بين اسر بغدادية ويهودية وفارسية وتركية وغير ذلك ، غير أن النسيج الاجتماعي في المدينة ظل يمتلك أغلبية الانتماء من أولئك الذين قدموا من ريف عشانرها المحيطة من بدور وغزي وحسينات والأزرق وغيرهم من العشائر الأخرى ، فيما أسس الصابئة المندانيون والذين كانوا يسكنون مدينة سوق الشيوخ ، أسسوا لهم في المدينة محلة سكنوا فيها بمحاذاة النهر كما أسسوا لهم في قلب المدينة سوقاً يمارسون فيه مهنتهم الأتلية في صياغة الذهب والفضة ومازال قائماً حتى اليوم ويسمى سوق الصياغ الذي زحفت إلى حوانيته اليوم مهن أخرى من أناس ليسوا مندانيين واغلبهم من الحدادين وبائعي المواد الإنشائية ، ولم يبق من محلات الصاغة المندانيين سوى القليل وذلك بسبب الهجرة الجماعية التي قام فيها مندانيو العراق نتيجة الأوضاع الأمنية السائدة وبعضهم هاجر العراق في زمن النظام السابق واغلبهم من المطاردين من الشيوخيين بعد انهيار وكان لهم كما لبقية سكنة المدينة من مسلمين ويهود . الجبهة الوطنية منتصف السبعينات من القرن الماضي ومسيحيين دور كبير في دفع عجلة التمصر والتحضّر في المدينة عندما رقدوا المدينة بأجيال من المتمدين واغلبهم من المعلمين الذين كان لهم الأثر الكبير في تنشئة الأجيال وخاصة في تعليم الرياضيات والقراءة الخلدونية للصف الأول الابتدائي والتي أجاد تدرسيها إجابة تامة المربي المرحوم بدرى قمر ، ومثلهم برع من أهل المدينة من اليهود حيث كانوا تجارا ومعلمين وبعضهم كانوا من أوائل الذين أسسوا الفرق الرياضية ، ومن صناع الوعي السياسي الأول عندما شاركوا أبناء الطوائف الأخرى في الانتماء إلى التنظيمات الاجتماعية والسياسية الأولى في

المدينة ، أما بقية المنجز الحضاري على سعته وامتداده فقد تكفل فيه أبناء الغالبية العظمى من أبناء المدينة من المسلمين حيث الجيل التربوي الأول والصناع والموظفون الحكوميون وجندمة المدينة ومبدعوها من الشعراء والكتاب والفنانيين كما تفتخر هذه المدينة بأنها منحت ريادة الغناء العراقي الحديث جمع مؤسس للأطوار الريفية ..(داخل حسن وحضيري أبو عزيز وجبار ونيسة )الأصيلة في حناجر مثلها الذهبي

فبين الطور الشطراوي الذي ولد ببحته الجميلة وتآلق في حجرة داخل حسن وبين الطور الصبي الذي برع فيه جبار ونيسة يقف تاريخ المدينة على قدمين متعبتين من أسى أزمنة كان سحرها وجمالها ورقتها وبالأعلى عليها ، فقد كانت هذه المدينة منذ بواكير البدء الحضاري لها وحتى اللحظة مانحة معطاء لما يحتاجه الوطن من جند ومناضلين ومبدعين ، وفي جمع الهواجس الثلاثة نحصل على حزمة من الدعم الذي ينبع من ذاكرة اللوح السومري ويصب في شهادة الوفاة التي تتداولها أمهاتنا في المحاكم ودوائر التقاعد وهن يتابعن مع انحناءة الظهر ولهيب الصيف معاملة أبنائهن من ضحايا الحروب الأسطورية والتي لا ولم تنته

يكشف السجل الأساسي لأول دفعة مجندة من أبناء المدينة أرقاماً تفوق أي أرقام لمدينة عراقية أخرى أثناء حملة التطوع التي قامت فيها الدولة العراقية عند تأسيس فوج المشاة موسى الكاظم في عشرينات القرن الماضي ، وفي مطالعة للأسماء تجد أبناء الريف الملاصق للمدينة يمثل الأغلبية الساحقة ، وهؤلاء وأبنائهم تحولوا بمرور أزمنة الخدمة إلى عرفاء وضباط صف أدنى لتكتسب المدينة اللقب الشعبي المتداول بين ألوية وفرق الجيش العراقي (المليون عريف )بمدينة

**أظن أن** هؤلاء المليون على بساطتهم وبراعتهم وحبهم الجنوني في احترام أنظمة الجيش وصرامتها مثلوا وجهاً وطنياً خالصاً يقع في خانة المشابهة مع الوجه الوطني القديم لجنود روما عندما تتشابه ساحات العرض وجبهات القتال مع تلك الرومية التي كان يضعها قادة فيالق جيوش قيصر ليصير موت الروماني هو تآلق لمثالية الانتماء إلى (روما )هيبة وجود مدينة هي

**أظن أن** موت العريف في ظروف جديدة لحرب عولمية تتشابه تماما مع ذلك الموت الإسبارطي أو ذلك الذي كان لكي تبقى النخلة مزهوة على ضفافها :جنود سومر يدفعونه ثمناً لسعادة السلالة أو الأمير أو كما يقول اللوح القديم ألفراتي وقربية من شمالة الإلهة وخلودها علي أن ادفع جسدي ثمناً لذلك أي كانت روح سومر طيبة أو شرهة (لامتلاك أمكنة أخرى

وهكذا ترينا قوائم المتطوعين الأوائل في دائرة تجنيد الناصرية وجوها من رغبة قديمة لهاجس السيف والبندقية ليثبت فيها الإنسان وجوده من خلال هاجسين لاغير ، حماية التراب الوطني وقتل جوع المنزل ويطون الصغار الذي تركهم العريف في القرية أو زقاق المدينة حفاة ويرتجفون من البرد في انتظار حقايبه المحملة بقماش الشمال السميك وأكياس الجوز والحناء وغيرها من الهدايا التي كانت تصنع في القلوب فرحاً وبهجة واحتراماً لذلك الذي رغب ليكون متطوعاً في جيش العراق والملك والأمة العربية

ولدت الناصرية مع حلم تركي ، وانتهت اليوم مع حلم متعدد الجنسيات ، وبين الحلمين تحاول المدينة أن تغرد خارج السرب وتصنع خصوصيتها الجنوبية التي تريد فيها النأي عن تواريخ مثل تلك ، فهي تحاول حتى في أرشفة وجودها أن تذكر فقط اسم مؤسسها مدحت باشا ولا تشير إلى غير ذلك

فما يربطها بالوالي والصدر الأعظم لاحقاً سوى فرمان السلطاني ، وما تلاه كانت المدينة خاضعة لسلطة عشائر المنتفك وبقيت تحمل اسم لواء المنتفك الذي لحقت فيه أمصاره القديمة والمستحدثة كقضاء سوق الشيوخ والشطرة وقلعة سكر والجبايش والرفاعي وغيرها من النواحي والقصبات

أسس الباشا المدينة ثم نسيها إلى هموم أخرى حملته من منصب إلى عزل وإلى المؤامرات والنفي بعد أن حضي بشرف أن يكون صدراً أعظم للحاضرة السلطانية في الأستانة لينتهي فيه الأمر منفيماً في الحجاز وليكتب لزوجته الشركسية حينه إلى أمكنة أحبها وعاش في رؤى تحديث أشواقها كما في بغداد عندما أسس خط **الترامواي** وجلب الكهرباء واستحدث لأول مرة في العراق نظام التجنيد الإجباري ، لكنه وكما اطلعت على أوراقه وبعض المتناثر من تلك الذكريات واليوميات لم يأت على ذكر المدينة التي صنعت بفرمان منه ، وربما نسي تلك البيوت المشيدة بالطين والقصب والأجر لتنمو بعد حنين وتصير رقماً صعباً في ذاكرة الجيوش الانكليزية الزاحفة **بأرتالها** الهندية والايروندية والاسترالية والانكليزية من البصرة صعوداً إلى بغداد وليتوقف طويلاً زحفها عند البطيحة في معركة باهيزة وليكتب ضباط الحملة الكثير عن هذه المدينة التي كانت بالنسبة لهم خط المواصلات الرابط بين الكوت والبصرة وبغداد ، وربما اثر هذا التوقف الطويل في سير العمليات في هزيمة الجنرال الاتكليزي **تاووند** في معركة الكوت أمام جيوش الترك بقيادة الفريق خليل باشا وليخضع هو وجيوشه إلى حصار طويل انتهى باستسلامه وأخذه أسيراً إلى بغداد ومن ثم إلى الأستانة

بين العصملي والسير برسي كوكس المفوض السامي البريطاني تأخذ متصرفية **لواء** المنتفك حظها كما باقي المدن

وتفتتح الناصرية أذرع التحول للحكومة الوطنية الجديدة بالرغم من الانتداب والوصاية والاستعمار المبطن تبني فيها المدارس الجيدة بمعلميها من المسلمين واليهود والصابئة ، تبني فيها المستشفيات ، وتشيد الحدائق في قبل أن يغير اسمه إلى شارع الحبوبي تيمنا بالمجاهد النجفي العلامة محمد (عكده الهوى) وسط شارع الأسطوري سعيد الحبوبي الذي توفي في بيت العضاض في شارع الحبوبي أثناء عودته من حملة الجهاد في معركة الشعبوية الوطنية ، ولينصب اليوم تمثاله البرونزي في ساحة في منتصف مسافة الشارع تماما تكاد تكون 1920 في ثورة أهم نقطة حيوية في المدينة ، ليقف السيد الجليل متكناً على عصاه وهو يقص للآزمنة الغابرة والقادمة وللأجيال قصة مدينة أوت فيه الجرح ومدته **بعده الخيل** و**عدد الرجال والقصائد**

وربما كان ليوناردو وولي مكتشف مقبرة أور الملكية قد شاهد المراسيم الفخمة لتشييع الشهيد الحبوبي إلى مثواه الأخير في النجف ، فتنقيب وولي تكاد أن تكون معاصرة للثورة الفعالة والمكوار وليكتب وولي عن مشاهداته الأولية عكده) وانطباعاته عن المدينة في الاماسي كررها لأكثر من مرة وهو يتجول في شارعها الطويل والمريح والمسمى إن المدينة التي امتدت على طول قامتها الطينية والمسورة بالطوب الأحمر الكبير وأبواب الخشب الهائلة : (الهوى ، لا تنتمي إلى ألف ليلة وليلة وذلك الشرق الذي نتخيله في حكايات شهرزاد وكهرمانه وعلي بابا ، بل هي مدينة تتنفس الأشياء الجديدة بصورة من يريد أن يركب السحب ليمسك بالحضارة ، ولهذا كانت سدارات الأفندية في عكده الهوى تساوي بالتمام والكمال العقال العربي ، وكانت البناتيل الإفريقية التي يرتديها شبان المدينة تذكرني بأنافة الشاب الارستقراطي اللندني ، وغير ذلك فالمدينة عندما تشرب من الفرات بتلك الشراة العجيبة فهي تسقي بفرح (ودهشة أمكنة الأثر القديم التي تحيط فيها من كل جانب ، أور واريديو ولارسا ولكش وتل العبيد تختلف رؤية وولي للمدينة عن رؤية مسس بيل السيدة الانكليزية التي لعبت في التاريخ العراقي الحديث دورا يشابه دور لورنس في تاريخ الجزيرة العربية ، وكانت مشرفة على عملية صنع الساسة العراقيين في زمن الانتداب وبعده وكذلك كان لها دور كبير في الإشراف على المكتشف من الآثار العراقية في كل مواقع التنقيب وخاصة تلك التي اكتشفت في أطلال نينوى ومقبرة أور ومدينة أوروك السومرية وغيرها من الأماكن الأثرية فالمس جبرترود بيل ترى مدن الجنوب ومنها الناصرية أنها مدنا مغيرة بفعل صيفها الطويل وفقرها وجعلها بالرغم من أن هذه المدن تجلس على أعظم كنوز الأرض واعرق تواريخ البشرية ، إن نظرات أبناء المدن المنحدرين من (أريافها القريبة تنبئ الفاهم أنهم يبحثون عن مجهول الدائم والذي لم يجده

بين رؤية وولي وبيل تختلف عاطفة المستعمر ويتغير استقراره ، فهذه المدن المغيرة ومنها الناصرية ، تعرف مجهولها جيدا وظلت وعلى الدوام تحاول أن تميظ عنه اللثام وتبعد عن أجفانه الغبار لكنها لم تستطع وحتى اللحظة بسبب تراكم المفارقات التاريخية والحوادث الجسيمة والطيبة المفرطة بالتفاؤل التي تجعل ابن الناصرية يلود بحجرة الابودية ليتخلص من رغبة الانتحار مثلاً عندما تفرض عليه جبهة عبدان موتاً غير مستحق في عدة مجلدات ضخمة تقبع خواطر حلم المدينة مؤرخة بحبر القلم الشيفر بأمل المؤرخ الراحل المحامي شاعر (مجلة البطحاء) الغرباوي ، رئيس تحرير ومؤسس أول مجلة محكمة في المدينة

فقد اطلعت شخصيا على تلك المجلدات في زيارات متعددة للمؤرخ في بيته ونحن نطمئن على صحته من مرضه العضال ، وكان كل حلمه أن يطبع تاريخ مدينة الناصرية في حياته ، وكان يعتبر المشروع هذا جنته المستحقة التي لم ينلها فحتى اغماضته الأخيرة في السنين الأولى للقرن الجديد لم تر هذه المجلدات دفع التنضيد والنور بالرغم من كل المناشادات لمتقفي هذه المدينة في الزمن الذي تلا الاحتلال وبعده ، وكان على جامعة ذي قار أن تأخذ زمام المبادرة ولكنها لم تفعل ذلك حتى الساعة على حد علمي والتي للمؤرخ الغرباوي الفضل الكبير في تأسيسها حيث لم تمل حنجرته ومرافعاته واسترحامه من الحكومة في الطلب لتأسيس هذه الجامعة ولم يجلس محافظاً على كرسي الإدارة في المدينة إلا وكانت على مكتبه في أول أيام ولايته مضبطة أو عريضة طلب تأسيس جامعة ذي قار كما كما سمعت إن جمعية أبناء مدينة الناصرية من تمنى تسميتها وسميت كذلك بعد أن أسست كلية التربية كنواة لها ساكني مدينة بغداد قد أعلنت رغبتها بطبع تلك الأجزاء وبمتابعة وإشراف من المحامي غالب الحاج فليح والأستاذ ستار ملا خضر ، ويبدو إن الخطوة تعثرت لأسباب نجهلها

يتداخل وجه المرحوم شاعر الغرباوي مع وجوه نخب مثقفة من أبناء المدينة من مجاليه وقبلهم ، تقرا في ظلال نظراتهم رؤية المدينة لفلسفة وجودها عبر مفازات محفزة لإثبات خصوصية المكان ، فهي من أمكنة الانعطافات التاريخية الحديثة بالنسبة لهذه البلاد ، وكأنها تأخذ هذا النفس من ذاكرة أور السومرية كانت قبلها صانعة لتلك الانعطافات منذ ولادة النبي إبراهيم الخليل في واحد من بيوتها وحتى إحراقها على يد العيلاميين في زمن الملك أبي - سين آخر ملوك سلالة أور الثالثة

مؤسس الحزب الشيوعي العراقي وسكرتيره الأول ، وللوزارات العراقية أعطت (فهد) ففي الناصرية عاش المدينة اثنان من رؤساء الوزارات هما المرحوم صالح جبر في العهد الفيصلي الثاني ، والمرحوم ناجي طالب في



الزمن العارفي ، كما كان المرحوم فؤاد الركابي من مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي وأمينه العام أيام جبهة وشغل إحدى الحقائب الوزارية ، مع عدد من أبنائه الذين استيزروا في حقب الحكومات اللاحقة ، عدا 1957 كما تفتخر المدينة بأن الكثير من المناصب السياسية المهمة في الكثير من الأحزاب عبر تاريخ العراق الحديث عقولها الفاخرة من أساتذة وأكاديميين جامعيين يجلسون على الكراسي **التدريسية** في الكثير من جامعات العالم، حيث يكتب لواحد من أبناء المدينة والذين يرجعون إلى أصولها أن يسمى باسمه واحد من الكويكبات الفلكية من قبل جمعية الفلك البريطانية وهو الدكتور عبد العظيم السبتي من الطائفة المندانية ، وهو اليوم أستاذ ممارس في ومثله الكثير **ممن** تحتفي بهم جامعات الغرب .اختصاصه في أرقى الجامعات البريطانية

وفي الجانب الفني للمدينة ريادة في الغناء العراقي الحديث ، وكان أصوات أبنائها من أول الأصوات التي صدحت في الإذاعة العراقية ، ووقف المطرب المرحوم داخل حسن جنباً إلى جنب مع مطرب المقام العراقي محمد القبنجي وفي الشعر أيضاً كانت لها ريادة في إبداع أبنائها أمثال قيس لفته مراد .ليبثاً على الهواء أول الحفلات الغنائية .وينعكس هذا على بقية الفنون والإبداعات الأخرى .وعبد القادر الناصري ورشيد مجيد وغيرهم هكذا تعيش المدينة ويتغير هاجس وجودها من حال إلى حال ، متغير يخضع لظرفية التواريخ التي تكاد أن تكون تواريخ صاخبة لأزمنة لم يهدأ فيها فصل واحد من فصول الراحة التي ظل الناصري يتمناها بعيداً عن الحروب والقسر السياسي والجهل الذي يولد من تراكم ذلك القهر ومسبباته ، وبالرغم من هذا يملك الناصري ذاتاً نقية تمتلك في عراقه و عيها إلى حضارة النشء الأول لبيوت وعوائل المدينة فيما يتراكم عليها سعال غرباء تحذف بهم ظروف ومستجدات الواقع هو في المحصلة نتاج ما حصل للبلاد جراء المسببات التي خلقت الوضع الحالي وقبلة ، غرباء المدن البعيدة والريف القصي والبلاد المجاورة ، وهم اليوم يمتزجون مع نسج المدينة ويخلقون ذاتاً نقية أخرى قد يتشوه فيها بعض الرؤية والمشهد ، ولكن المدينة كحالة لخصوصية وجودها المميز تحاول أن تتأى عن مزاج الغرباء وسلوكهم لتبقى مدينة رائقة لصفاء الوعي واللحظة المدهشة لحظة الشعر واللوحه التشكيلية والنوثة الموسيقية ورسالة الحب والقصة التي تطرق بأصابع الذكريات بيوت الزمن وتوقظ من ماتوا وهاجروا من الصحاب والربيع والخلان

للمدينة جانب مدهش وشيق في حداته وجودها الذي لم يتعد بعد القرنين من الزمن هذا الجانب كشفه مرة الشاعر قيس لفته مراد في إهدانه لكتابه الفانوس ، عندما خصنا بهذا الإهداء جبر يرتجف فيه أسى العزلة والمرض والشمالة ، والإهداء يمشي في طياته حلم المدينة وحقائق عاشتها عبر أزل قديم حتى قبل أن يومي الباشا بنظراته إليها ويضعها على الخارطة الجغرافية

من أجل هذه المدينة التي ينظر من تحت :كتب الشاعر في إهدانه إلى على الصفحة الأولى من كتاب الفانوس أجدانها الفرات ويشعب فؤاد العاشق قبلات ووردا ، أضع تاريخ شوقي السومري بتاريخ كل مبدعي المدينة وقرانها ، ومعهم أتمنى أن أهدا بإغفاءة أطول من قبلة الشمس للنخلة ، ولكني لا أقدر أن أجبرها لتكون لي مادامت هي ..(للجميع ، وعرفانا بمحبتتي الأزلية لها أوقد هذا الفانوس في ليلها الطويل

ومثل الراحل قيس لفته مراد يحاول أبناء المدينة من أقاح وجودها أن يوقدوا الشموع في ليلها الطويل الذي ينز فيه ..لهيب نهار تنقطع فيه الكهرباء لساعات

هذه الشموع بالرغم أنها تزيد اللهب والحرارة إلا أنها تبقى بالنسبة لهم مثل بارقة أمل بان تزال غمة هذا الوضع المتعب لمدينة كان غبارها فصل الصيف فقط ، والآن غبارها الفصول كلها بسبب حاجتها للأمكنة الهادئة والحدائق بعد أن أتعبتها فصول عجيبة ورهيبة من الحروب وأهمها حرب برزان والتي أشدت .والشوارع والأرصفة المعبدة وفي تلك الحربين .أوارها على أبناء المدينة في أوائل السبعينات ، وحرب الثماني سنوات بين العراق وإيران أعطت المدينة من الشهداء والمفقودين والأسرى ما لم تعط أي مدينة عراقية أخرى ، وقد شكلت تلك الليالي المخيفة التي كانت تجلب فيها نعوش شهداء حروب الشمال المصنوعة من خشب البلوط طقساً يكاد أن يكون يومياً حيث وقت زمن وصول نعوش هؤلاء المساكين قبل منتصف الليل بساعة على أكثر مواقيت وصول الحافلات مع مأموريها فتستيقظ المدينة الغافية مع شعاع نجوم السماء الصافية على نواح الأمهات المفجوعات بتلك الزيارة الليلية وهن في أغلب الأحيان يتوقعن بظفرة الأمومة ما سيحدث بسبب ضراوة القتال ودقة تصويب القناصة الكرد ببندقية البرنو الجيكية الصنع والمأخوذ اسمها من اسم المدينة المصنعة فيها ، فكان أغلب شهداء المدينة الذين سرقنهم حروب الشمال يقتلون برصاص هذه البندقية التي التصقت بذاكرة النساء بالرغم من عدم شيوعها كسلاح جنالك )في الجنوب ، لتدخل في زغاريد الأعراس في مفارقة غريبة عندما تقارن بأنوثة العروس وعفتها بقولهن (برنو ما ملعوب بسركيه

تلك الليالي الحزينة من تاريخ المدينة لم توثق في نص إبداعي طويل ، ولم تنتبه إليه أوراق الذكريات جيداً ، سوى بعض القصائد الشعبية التي دونها شعراء المدينة على شكل مرثيات واستذكار لأولئك الذين كانوا يأتون إلى مدينتهم

في عودتهم الأخيرة إليها سوى ببذلة جبلية ملطخة بدم الإصابة والدمعة التي تنن من مرارة أن الأمهات سيوظهن والشمال.. أنا قلت يا علي (صوت طرق الباب وهن نانمات على السطوح ثم يبدأ فصل النواح بجملة الجزع القائلة طركاعه الفت (أو تلك التي كانت نساء مدينة العمارة يهزجن مع وصول تلك النعوش البيضاء (كال جيبيهه ألي ..(برزان ببس بأهل العمارة

حرب (انتهت حرب الشمال وتنفس شباب المدينة الصعداء ليأتيهن هاجس لموت جديد هو أشد وطأة من موت ، عندما بدأت حرب ضروس بين العراق وإيران على خلفية المشاكل العقائدية والحدودية بين البلدين ، (برزان لتري الناصرية ما لم تر غيرها من مدن العراق عندما راح ضحية هذه الحرب طوابير من أبناء الشهداء ، وهذه المرة كانت نعوش الشهداء تصل في وضح النهار ويميزها ذلك العلم الذي كان النعش يلف به والسيارة التاكسي الذي تحمله ، ليزداد النواح والحماس وطاعة الأمر لواجب يعتقد الكثير أن طاعته هي وليدة البناء النفسي للمرحلة وقصة هذه .والخطاب السياسي ودور الإعلام وأمور تتعلق بالعلاقة التاريخية المرتبكة بين العراق وبلاد فارس المرحلة من تاريخ المدينة طويلة ودونت بأكثر من رؤية في كل المجالات ولكنها اليوم تخضع للكثير من تأويل النقد بين الإدانة والرضا ، وفي النهاية لا يمكن إلغاء تلك الهواجس من تاريخ المدينة بأي شكل من أشكال انتماء هذه الهواجس ، ومن يحاول أن يلغي القيمة الفنية والتوثيقية فهو يحاول إلغاء تاريخ ومرحلة معاشة بكل فصول محنتها وجمالها والأمها

الكتابة عن الناصرية مهنة لا تمل بالنسبة لأبنائها من الذين ابتلوا بعاطفة الكتابة وحرقيتها ، وحتى البسطاء يحاولون أن يعبروا عن ابسط هاجس يثبتون فيه صدق الانتماء للمكان ، ومجرد الجلوس في المقهى أو النزهة على ضفاف الفرات أو تذكر أريج الورد في متنزه المدينة أو حضور عرض مسرحي في بهو بلديتها يعيد إليك قناعة عن المدينة موجودة ، وباقية وليس لرياح العيب العولمي ونقص الخدمات أن يغير فيها شيئا ، فهي مدينة تحسب في أرقام القلب كمعادلة نتيجتها خلود لعاطفة الطبيين الذي سحبهم ارق صفاء النجم ليكتبوا أو ليعيدوا مواويل الشوق لبساتينها وهم يلتسعون بتلج ربايا الشمال أو يكتبون بلهيب حجاب الحرب أو ذلك المهجر الذي هطلت فيه سويغات التذكار لينام في خاصرة المحب شجن الحلم لواحدة من أعذب بقع الدنيا مدينة تاريخها ينطق بأغاني العصافير والسنونو وديك السطوح الطينية ، تلك التي تتعشى بصوت أم كلثوم وتفطر لو رايد عشرتي (على صوت فيروز وتقضي قيلولتها على نغم حنجرة داخل حسن وهو يهتف بموسيقار سومري (أدور علّة الصدك يا ناس راح وبعد وين الكاه ..حجي الجذب لاتطريه ..وياك هذا نواح الماء والشجر ، وهو وحده من يصنع المدن الأصيلة تلك التي تشدنا إلى خاصرتها أكثر كلما بعدنا عنها مدن الملح والغبار ودموع رسائل الحب وموسيقى دفعات التجنيد الإجباري وخبز التمن وزمن آمني .مسافة أطول الخضارة والكسبة والندافين ..جوب وسارتر والمواكب الحسينية

مدينة الناصرية الشاهد لجزء مهم من تاريخ العراق الحديث تبقى تسجل في رُقم الطين وجدران المعابد وبيوت محلاتها القديمة خواطر حلمها الأبدي بأن تظل وتدوم إلى الأبد فوانيس للطريق الواصل بين النجوم واجفان العشاق ومتى تأتي لحظة الراحة والنفس العميق تبقى المدينة أمانة في عنق المتصرف والقائمقام ومدير الصحة والمجلس .البلدي ، والوطني الغيور الذي تبحر الرياح في جيوبه وليس الحساب المصرفي

## الفصل السادس

### (شعب جلجامش ، شعب سمر قند ، شعب السريالية )..المعدان

ولدي ، الحرب ليس لنا معها سوى مايهجعنا ، وما يفزع جواميسنا ويحرق بيوت القصب ، ولذلك أذهب أليها ))  
!!..بعصاك الغليضة ، وأجبرها لتذهب عنا بعيدا  
تقول الأم بارتباك خجول ..الغريب أن العصا الغليظة هي من استدارت لتضرب قفا المعيدي ولتجبره ليذهب بعيدا  
(.!لقد انتصرت الحرب علينا حيننا من الزمن ولكن ليس الى الأبد :وفتنة تشبه ضوء شامة على الخد

من هو اجس أم من سكان الأهوار

وجوهم تشع بجمال سريالي غريب ، تصبغة دهشة غامضة عن تفكير عميق بشيء لم تدونه أبجدية القرن )  
العشرين ، إن نظراتهم المسمارية الغامضة تنبئ عن أبد سحيق يعود بهم الى ألواح الحضارة الأولى ، لهذا فأنا  
أجزم إن معدان اليوم ، ليسوا سوى بقايا سومريي الامس ، بقوا حذرين ليعيشوا، فتركوا مجد سيوفهم ، ليعيشوا مع  
مجد جواميسهم العائمة في خيال الماء والطبيعة وبراعة التفكير بان أي شيء لن يصيبهم ويفتك فيهم مادام السيد  
سروط والعلوية فواده أم هاشم والسيد يوشع قد قرؤوا الحمد وتبارك قرب وساند مواليدهم الجدد  
المعدان اصلاء ليس بإصرارهم على عشق المكان فقط ، بل بما يمتلكون من أمل خالد ، أنهم سيعودون إليه حتى لو  
(.دمرته مدافع جيوش الأرض كلها  
مقدمة من أجل المكان الى الأمم المتحدة

والمعدي غير المعيدي وهو طائر جميل الصوت قبيح الصورة ومن هنا جاء في أمثال (معدي) المعدان جمع ))  
هذا يعني أن هذا المثل المتداول بين الناس والهدف منه ..(أن تسمع بالمعدي خير من أن تراه)العرب قولهم

الانتفاص من قيمة المعيدي هو لا يعنى فيه المعيدي كأنسان وأصل ونسب بل يقصد فيها هذا الطائر المسمى على هدي هذه الحكاية وهذا المعنى ، حاولت أن أعيد تكوين صيرورة هؤلاء الناس من خلال إحساس ..((المعيدي خاص اعتمد ليس فقط على ذاكرة التاريخ ، بل إن المعيشة والتجربة والمراقبة والبحث صنعت لدي كل تلك التصورات التي خلفتها برؤيا هي في تقديري عمل أدبي قيل أن تكون دراسة لتاريخ شعب ظل على مدى عقود .يمسك أحلامه من خلال إحساسه بان الله خلقه لهذا المكان فقط

فقد قدر لي أن أعيش معهم ردحا من الزمن في فترة عصيبة من حياتهم ، وما أكثر قسوة التاريخ على شعب يدرك فقط أنه شعب أت من حضارته البعيدة التي منحت العالم رسم الحرف ومعنى الكلمة ، وهم الشعب الوحيد في الكون من جعل الجواميس خيول معاركة وليس جياذ الحرب التي ركبها قتيبة بن مسلم الباهلي وذهب بها الى سمر وكنت دانما أضع قضاء الجبايش وهو واحد من أهم مدن الأهوار في مشابهة جمالية وروحية مع سمرقند .قند المدينة الأوزبكية التي سحرت القائد المغولي جينكيزخان ، و**ظننا** مفتاح الولوج الى العالم الجديد وامتلاكه ، عندما وتأملى الى وصف المؤرخ المغولي وحاكم بغداد بعد .إذا كنتم تحلمون ببغداد ، فليكنم أولاً بسمرقند :همس لقادته :هولاكو عطا الجويني في وصف المدينة يعنينا عن أي وصف آخر لها قوله

أنزه جنان الله أربع ، وسمرقند :سمرقند أعظم بقاع مملكة السلطان مساحة وأطيبها ربوعاً ، وقديماً قالوا ((

)).(أطيبها

:أيتاليو كالفيينو صاحب اشهر كتاب عن المدن المتخيلة يقول .صناعة المدن والأمكنة المتشابهة أمر ليس بسهولة .عن صناعة مدينة مفترضة لواحدة كموجة في الواقع لابد أن ينال الكثير من الاسطرة

وعليه فان جلب سمرقند الى الجبايش يعني مفارقة غريبة ، فمن **جاء** بالأزوبك الى مدينة بني أسد وقرى المعدان الذين يطوفون بأخيلة الماء والنجوم كما تطوف الغيوم في كبد السماء ،فيما سمرقند لا تطوف فيها سوى زرقة الكاشان الذي يزين مآذنها وذاكرة تاريخ الأوزبك وهم يحلمون بالشرق الذي يرقد فيه أمام مذهبهم أبو حنيفة .النعمان وبيت الله في نجد

لهذا أتخيل أن سمرقند ثانية تطوف في أرجاء مكان **تصبغة** من كل جهاته اضوية اللازورد الأخضر وكتابات تتحدث الذي غفت على كتفه الكثير .عن سحر غامض لكنوز وامكنة كانت في يوم ما واحدة من اجمل أحلام الاسكندر الكبير من الأساطير ومنها ما كان **يظنها** هو أن جنوب بابل التي وصل إليها بخيول الرومان والإغريق والمقدونيين لعصية .عليه بسبب أقوام البطانح والمياه المحصورة بين ضفتي دجلة والفرات ،وحتما كان يقصد المعدان (سكندر )للأسكندر في قصيدته الشعرية النثرية والموسومة (نظامي الكنجوي )ويبدو أن تصوير الشاعر الفارسي الطويلة التي تحدث فيها عن مراحل حياة الإسكندر في صورتيه المفترضين ،تلك التي دونها التاريخ عنه (نামه بأسم الإسكندر المقدوني ،وتلك التي جاء ذكرها في القرآن الكريم بأسم الإسكندر **ذي** القرنين بعد أن سأل عنه وفي نهاية فصولها الحكاية التالية عن الإسكندر وفيها ما اعتقده .الرسول من قبل قريش وبياعاز من أحبار اليهود

ربطاً بالمكان واهله وخصوصيته قول الشاعر الفارسي الكنجوي

ثم علم الإسكندر إنه وصل الى الأرض الظلام حيث يوجد ماء الحياة ، فأقترب من المنطقة ،وقابل الخضر ، فسار (( معه في الظلام وأخذاً يفتشان عن ماء الحياة ، فعثر الخضر على عين ماء وشرب منها ، أما الإسكندر فقد تاه عنها .))((وظل الطريق ، وظل يبحث عنها أربعين يوماً فلم يعثر عليها ،فقفل راجعا الى بلاد اليونان

في تناص بنيوي تظهر هذه الحكاية ملانمة مع خصوصية المكان الذي عاش فيه عرب الأهوار ، حيث المكان ذاته تفاحة الحياة ،ماء الحياة ،عشب الحياة ،) الذي انطلق منه جلجامش **للبحث** عن خلود مفترض وصف بعدة أشكال ، وربما يأتي **شبي** من الربط في حكاية الشاعر الفارسي إن ثمة مكانا مقدسا يقع في الطريق الواصل (شجرة الحياة وناحية الفهود من أشهر مدن كم جنوب بغداد 360 /بين مدينة الإصلاح ومدينة الفهود ضمن محافظة ذي قار الخضر )الأهوار التي يسكنها المعدان منذ البعيد تحوي مقاما يقده الناس ويزورونه في مواسم معينة يسمى مقام (حي الدارين

وربما هذا التناص في رواه البنيوية يقودنا الى تفكير آخر في علاقة الإسكندر في المكان الذي سكنه أهل سومر وهم سكان الأهوار القدماء وصانعو عصرها المجيد في سلالاتها الثلاث ، يقودنا الى شخصية الإسكندر **ذي** القرنين الذي ذكر في سورة الكهف وفي هذه الآية يصنع التناص وتقترب شيئا من الصورة عن المكان وخصوصيته ، فالإسكندر ربما وصل المكان وله مع المعدان جولات بالرغم من إن التاريخ لا يتحدث في هذا الأمر سوى ما تركته والآية الكريمة التي .لنا رؤية أحد قادته الذين أرسلهم لاكتشاف المكان والسيطرة عليه وهذا القائد هو نيرخس وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا ))تحدث عندنا تلك المقاربة أو الظن هي (حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم تجعل لهم من دونها سترا ( 89 )ثم أتبع سببها ( 88 )يسرا

)).( 90

وربما يقترب القصد إن أولئك الذين تجعل لهم الشمس من دونهم سدا ، هم سكنة الماء الوفير الذين ينظرون في فكانت .صباحهم الى أفق مفتوح لاينتهي ، حيث لا يستترهم حد فاصل أو جبل أو أي تضاريس طبيعية سوى الماء الشمس بعض من سترهم الذي يحتمون فيه

أعود الى هذه الفترة العصيبة التي حاولت فيها الدولة أن تسيء الى مرجعية وعرق ونسب وانتماء هؤلاء الناس وكأنها كتبت معتمدة على . 1991 خلال مقالات يومية نشرتها جريدة الثورة العراقية بعد نهاية حرب الخليج الثانية نظرة عامة خاطئة وبعض المؤشرات التاريخية القليلة التي كتبت بمزاج مؤرخ غير منصف وشعوبي أيضاً ، وعدها كاتب المقال الذي لم يذيل أسمه تحت تلك المقالات ، حيث افترض البعض عن إن الرئيس السابق صدام حسين هو من كتبها ، فيما قال آخرون إن عبد الجبار محسن مدير التوجيه السياسي والناطق الرسمي بأسم الحكومة ورئيس تحرير صحيفة القادسية الناطقة بأسم وزارة الدفاع هو من كتبها بإيعاز من الرئيس ، وأي كان كاتب تلك الأعمدة التي لم تلق من بال في الذاكرة الشعبية للمواطن العراقي بسبب سعة معرفته وإدراكه لتسييس الأمر وانتقاما للحركة المسلحة التي قامت بها مناطق الأهوار والجنوب ضد الدولة ومؤسساتها الرسمية والحزبية ، وهي من نتاج التراكم الاجتماعي والاقتصادي والأيدلوجي القائم بين الدولة كنظام وبين تلك الشرائح الريفية التي تكونت ثقافتها على أساس المتوارث من عصور القهر الديني والتمايز وتأثير الأحزاب المعارضة والمقاومة للدولة والتي اتخذت من الأراضي الإيرانية المتاخمة والمتداخلة مع مناطق الأهوار مقرا لأنشطتها وتحركاتها واهمها التشكيل العسكري للمجلس الإسلامي الأعلى والمتمثل في فيلق بدر الذي تأسس في قم بدايات الثمانينات والذي شارك مشاركة فعالة عبر عناصره التي استغلت انفلات الأمن وغياب الأفواج الحارسة للحدود وتفكك البنية العسكرية للدولة وهيكله معظم فرق الجيش نتيجة للانسحاب **غير المنظم** والهزيمة التي تلقاها بعد دخول العراق للكويت وما (صفحة الغدر والخيانة ) ، فيما كانت الدولة تطلق عليها مسمى (الانتفاضة الشعبانية المباركة ) أطلق عليه كان التشكيك بهؤلاء الناس يقوم على أساس انهم **عديمو** الوطنية كونهم لم يكونوا أصلا من العراق حيث عددهم الكاتب من بقايا أقوام هندية هاجرت الى العراق مع قطعان جواميسها في فترات متلاحقة ومتباعدة من التاريخ .، وانهم لا يفقهون في السلوك الحضاري أي شيء ، فهم لم يعرفوا حتى ارتداء النعل أو اللباس الداخلي ويبدو أن سكان الأهوار دفعوا ثمن هذه الصفحات من الفوران الشعبي ، حيث انسحب الآتون من إيران وتركوا أبناء الأهوار الى قدر مجهول من نتائج الكارثية قيام الدولة بإصدار قرارات تجفيف الأهوار ، بعد أن تحدث حسين كامل حسن صهر الرئيس في واحد من اجتماعات مجلس الوزراء وكان حينها وزيرا للتصنيع العسكري ، أن لا خلاص من غضب ومقاومة أبناء تلك المناطق إلا في تغيير المعالم الطبيعية للمكان وتجفيفه وإقامة مشاريع استصلاح للأراضي لتهيئتها للزراعة الشتوية والصفيفية في الحنطة والشعير من خلال إقامة مشاريع الأنهر والسدود لحصر سكان الأهوار في مجتمعات ريفية معلومة وتحت أنظار الدولة ، فأقيمت مشاريع اروانية وانهر صناعية **تتغذى** من نهري الفرات ودجلة كنهر الكرماشية وعبادة وأم المعارك في الناصرية ونهر العز في ميسان غير أن المناطق لم تتل من هذه المشاريع شيئا يذكر ولم يحسن الوضع الزراعي لسكانها .وغيرهما من الأنهر بسبب شح المياه وارتفاع نسبة الملوحة وعدم تأقلم تلك المجتمعات مع الوضع الجديد الذي اعتبر في بعض الأحيان بمثابة تهجير قسري ، وخاصة عرب المعدان الذين لم **يتعودوا** في حياتهم على هكذا نوع من التوطن ولم يكونوا ولذلك فضل الكثير منهم أن يبدأ .مياالين الى الزراعة بقدر ميلهم الى تربية قطعان الجاموس والاستفادة من منتجها هجرة منظمة الى المدن ، وامتهان مهن حرفية أو الاشتغال **كعمال** أجراء في البناء أو الصناعات التي كانت تعتمد على مادة القصب ، وبعضهم فضل تطويع **أبنائه** في سلك الجيش أو الشرطة تخلصا من العوز والفقر والمتطلبات الكثيرة التي تحتاجها المدن بعدما كان في بيئته لا يحتاج سوى الى سرير من القش وسماء مفتوحة على المياه الممتدة باخضرار خجول بين الأشنات والغابات الكثيفة للقصب وعصا **غليظة يسوس** فيها قطع جواميسه حجم العصا يجب أن يكون بمستوى :أدركت أخيراً لماذا تكون عصا المعيدي **غليظة** ؟ من خلال جواب أحدهم لي حجم الحيوان ومزاجه ، وهو **يظن** أن مزاج الجاموس ليس رائقا في كثير من الأحيان ، فهو يحتاج الى عصا **غليظة تسوسة** ، بينما لا يحتاج راعي الغنم في المجتمعات الريفية الأخرى سوى الى عصا نحيفة يحولها في بعض الأحيان ويبدو إن الدولة انتهت الى عصا المعيدي واستفادت من خصوصيتها واستخدمتها .الى ناي عذب ليقود فيها قطعية ضدهم عندما ، كانت سياسة العصا **الغليظة** هي ما مورست على سكان تلك المناطق وسعي من خلالها تغيير ملامح الطبيعة وانقراضها من خلال منع المياه من الوصول الى تلك المنخفضات وأقامة السدود **عبر** جهد هندسي جبار ، وعملية تعبوية شاركت فيها كل قطاعات الدولة من موظفين واناس من شتى المهن عندما كانوا يجبرون في وهي مشابهة الى عملية جز الصوف أي قطافه ، (جز القصب )الذهاب الى الهور للمشاركة ما سمي حينها عملية وهو ما يطلق على الثوب (بدشادشة )وكانت الدولة تكرم المشاركين في عملية جز القصب هذه .أو حلاقته .الرجالي الطويل في الدارج العراقي

يبدو مصطلح حلقة القصب ، غريبا ،ولكن في مزاج الساسة وتصرفات الولاة لا يبدو الأمر غريبا ، فإن المناجل تحولت الى مقصات لتلك الضفائر القصبية التي ظلت منسدلة على جبين التاريخ وأكتافه آلاف السنين ثم جاء الأمر وتلك معادلة لايمكن .الرناسي بضرورة تحويل تلك المناطق الى مناطق يابسة لأن أمن الوطن أهم من الأمن الطبيعي أن تضع في قواميس السياسة أصلا ربما لأن الطبيعة هي أم الوطن وأم الإنسان والوطن بلا طبيعة لها خصوصيتها لن يكون وطننا أبداً

وهو حتماً زمن عصيب أدرك من خلاله .بين العصا الغليظة وحلقة القصب عاش المعدان زمن المنفى الجديد المعدان أن اندماجهم في المجتمعات الجديدة يبدو مستحيلا ، وان بهجة المدن لا تلتقي مع دمة الجوع والعوز ، لهذا كانت غربته ترتسم على حياتهم من خلال إصرارهم على إبقاء جزء من خصوصية العيش الذي كان يلف بهجة حياتهم في الأهوار ، عندما حاول بعضهم من تأسيس مجمع سكني صغير لهم يمارسون فيه تربية الجاموس والامتهان من منتجه من خلال بيع القيمر والحليب فتكونت أحياء تحمل مسمياتهم هي أصلا كانت موجودة قبل التحفيف ولكنها توسعت بعد أن هاجر الكثير من أبناء الأهوار إليها ، فاضطرت الدولة أن تنقلهم مع دوابهم الى مناطق ابعده عن الحدود الإدارية لمراكز المدن كما في حي المعدان في مدينة الناصرية ومنطقة الكمالية في بغداد والمهم في نظرهم الى المكان الجديد أن يكون قريبا من منابع المياه ومجرى النهر ،فقد كان .وغيرها من المدن الماء بالنسبة للمعدي الملاذ الوحيد لكل أحلامه ،وهو يلتقي مع المندانيين في نظرهم الطقوسية والمقدسة للماء فالعالم بالنسبة له ظهيرة دافئة يتأمل فيها .فهو حياتهم ،ومن دونه لا يستطيع المعدي أن يهنئ في لحظة واحدة .قطعانه وهي تقضي قبولة المتعة في الماء وتحت أشعة الشمس

ربما لم ينبه احدهم الى التشابه الكبير بين عصا جلجامش المتخيلة من حكايته الأسطورية في رحلته العجيبة وبين عصا المعدي

والحق كما أكتشفه الرحالة ورجال الآثار الذين زاروا وعملوا في مناطق الأهوار أنهما من نفس الشجرة ، وربما هي من سلالة تلك الشجرة التي تقف اليوم شامخة من أعوامها الألف المؤلفة قرب ضفاف اللقيا بين دجلة والفرات التي تزار من قبل سكان الأهوار كما تزار مراقد الأنبياء والأولياء ، شجرة السدر ( ع )شجرة أبونا آدم :ويقال لها .التي يحرص المعدان دانما أن يكون خشب عصبهم التي يقودون فيها قطعان جواميسهم المشاكسة منها من خشب شجرة السدر صنع جلجامش عصاه التي تلمس فيها الطرق البعيدة المليئة بالأخطار بحثا عن وجود أبدي .، وبها أوجع رأس الشر ضربا عندما هو ي بقوة سومري شهيم على رأس خمبابا الوحش حارس غابة الأرز ولأن الجواميس ليست خمبابا ابتكر أحفاد ملك أوروك هذه العصا ليلوحوا بها فقط أمام قطعانهم ليرهبوها ، فقد لا يجرو معيدي على ضرب دابته بتلك العصا لأنه يدرك بان الحنان الذي تحتاجه الجواميس ينبغي أن تراه مرسوما في حشد المواويل والأغنيات التي يطلقها المعدان وهم يعودون بقطعانهم من مراعي الماء والقصب أملين بأواني وفيرة من حليب دسم يطعمون به أطفالهم ويذهبون بالباقي الى المدن القريبة ،حيث يدرك العراقي إن لا لذة وطعم يفوقان قيمر جاموسة المعدي ،وحيث لاسحر يفوق تلك المشية الجميلة التي تتهدى فيها بنات المعدان وهن .يحملن فوق رؤوسهم ناظحات سحب من قدور الحليب والقيمير واللبن الخائر

لكن الفرق شاسع بين عصا الملك السومري وبين عصا المعدي بالرغم من انهما بحجم متساو ومن شجرة واحدة ، يتخيلها البعض أنها من شجرة السدر حتماً ، وهي ذاتها التي صنع منها آدم ع أول عصا ردع ليعاقب الأخ على قتل أخيه ،فيكون هاجس الانسياق بالعصا هو هاجس متوارث ، حتى وصل أخيراً الى معلم المدرسة ليعاقب فيها .تلميذه والى الشرطي ليعاقب فيها المتظاهر المحتج

هذا الفرق قائم على رؤيا الهدف بين الملك والمعدي ،وهي رؤية أزلية وتعيش معاصرتها اليوم في مجمل تفكيرنا بقضية شعب الأهوار ، فتنائية الملك والعصا قائمة وبينهما يوجد مستلب يحاول جهد الإمكان أن يتحاشى تلك العصا ،وان لم يستطع استخدمها هو لسلطة أخرى لا تقترب من قفا الملك بل من قفا جاموسته ، غير ذلك فإن عصا المعدي الغليضة لها فهم ومدلول واضح أنها صنعت لتدع مزاج الجاموس ، فما صنع جلجامش عصاه ليردع مزاج الزمن وفي ذلك إشكالية معقده كلفته أن يخسر لحظة الإنسانية ليعيش فكرة الخلود التي لم ينلها حتى الأنبياء عصا المجهول هو .فكان الفرق قائما بين هاجسين .والقدسين وأباطرة المال ،واعني فكرة أن نبقي أحياء الى الأبد جلجامش ،وعصا المفهوم هو المعدي ، وربما انتصار عصا المعدي في النهاية وبقاء النمط الحياتي لوجوده خالدا ليوقفوا خلود البسطاء .فيما ركنت أحلام جلجامش الى ألواح الأسطورة هي من جعلت الملوك ليصنعوا عصا أخرى والذين عاشوا بفطرتهم السريالية ليخلقوا نمطا جماليا من العيش تغلفه القناعة والنظر الى المحيط الممكن دون الذهاب بعيدا ، وهذا الإيقاف كان بواسطة الردع الطبيعي ،وهو نمط جديد من الحرب ربما أقسى من تأثير المدفع وربما ليس فقط .والبنديقية ومقصلة الإعدام عندما تفكر بتغيير الطبيعة وهذا يعني في العرف الفقهي تغيير خلقة الله العطش أيضا ، فالمعدي يقول عندما .أفواج العسكر والجهد الهندسي وسدود التراب هو من يسهم في هذا التغيير

يشح الماء عني يعطش جسدي ، ولكن عندما تعطش جاموستي تعطش روحي كلها .  
عطش الأهوار بالنسبة لأولئك السرياليين هو عطش الروح ، وذلك بعض من هواجس ملك أوروك جلجامش ، فقد كان يلوح بعصاه حتى ظل الشجرة الذي يصادفه يوم شعر بعطشه وانتهى فيه ليغفو تعباً بالرغم من انه وجد نبات الخلود ، لأجل هذا فإن الدولة التي تريد أن تديم عالماً كهذا عليها أن تبعد عطش الروح عن المعيدي وسكان الأهوار قبل أن تبعد عنهم عطش الأرض ، وعطش الفم ، لأن من تعطش روحه صعب أن تسقيه بحوضيات الماء وقتاني المياه المعدنية ووعود الأعمار ، مادامت دجلة تأن من جفاف مجاريها ، والفراة تزداد ملوحته في أعلى نسبة له في أزمنته ، فإن الحلول المفترضة والوعود وزيارات المسؤولين لن تجدي نفعاً  
أضع روحي المعيدي في ميزان اللحظة التي قرر فيها جلجامش المشي الى قدره الجديد ، وعليّ أن ألوح بعصاي ، أشق فيها قطعان الجواميس المقدسة التي رسمها نرام - سين على مسلته وأظهره فيها جبروت رجال المياه والقصب ، ومع الملكين أبره في اسطورة تلك الشخصية وأقرا فيها ما يعتقد المؤرخون والرحالة انهم في خصوصية عيشهم هذا يمثلون حالة نادرة فقد كان **ثيسكر** مؤلف كتاب المعدان يرى فيهم شعباً بسيطاً ومتواضعاً وكريماً وذكياً ، وهذه كما يقول ديوارنت في قصة الحضارة بعض خصال الشعوب العريقة  
هذه الروح التي لم تأن تحت أي وجع حتى مع الكوارث الطبيعية والحروب والمجاعات ، ولهذا كانوا يرون في ما يحدث أمراً قدرته السماء ولا مناص منه ، ولكنهم من شدة عشقهم للجواميس والقصب يرون في جوعهم أخف أن حزنهم يكمن عندما يرون حزن المكان . وطأة عليهم عندما لاتجد دوابهم قصباً اخضر وماءً وفيراً **تخس** فيه الذي يعيشون فيه يقطر دوما على ما يصيبه من عطش وتصحر وغياب الطيور المهاجرة لتقضي مشاتها بين الغابات الخضر والمياه التي تضيء بخضرة العشب كما تضيء الرقم المكتشفة في مناطق الأهوار والتي تحدث وحدهم عرب الأهوار . لرجال المعاول والمكتشفين عن عهود وطبقات من أزمنة عاشت عصورها الذهبية ومضت بقوا ليس لانهم يشقون المكان بل لأنهم أزله المطلق  
هذا الأزل الذي وقفت عنده الحكومات والمنظمات حائرة وسلطت عليه شينا من أضوانها فقط لأجل أن تحيي فيه ما كان متعوداً عليه ، أن تأتيه المياه في مجاريها الفيضة ، ولكن الاستبشار لم يدم كما كان متوقفاً ، ومرة أخرى رفع السياسة عصاهم الغليظة ولم **يلتفتوا** الى أحلام جلجامش ، وإذا كنا نتصور في أحلام الجغرافيا إن خلود ارض العراق مع خلود نهريه ، فكيف سيكون ذلك الخلود إذا جف الماء ، وعاود المعدان هجرة أخرى الى باطن المدن .  
(أحياء المعدان )يؤسسون أحياء مصطنعة تسميها البلدية وأهل المدن  
أنصف الأجناب المعدان قبل أن ينصفهم أهلهم من العراقيين ، فعدا إشارات الدكتور علي الورد في بعض دراساته الاجتماعية ، تخلف الباحثون والمؤرخون كثيراً عن الغوص في حياة هذا الشعب وروحه ، وربما الأدب العراقي هو من اعنى كثيراً بهؤلاء الناس من خلال معاشية الكثير من الأدباء من قصاصين وشعراء لسكان الأهوار في فترات النفي السياسي لهم وأغلبهم من المعلمين ، ولكن مؤرخاً ورحالة هو ويلفرد ثيسكر أعاد لوجودهم الأصل والهيبة ، وعایش فيهم جميع الصفات الإنسانية ، وجعل العالم يرى الطبيعة الحقيقية لشعب كان ماكس مالون الأثاري الذي رافق ليوناردو وولي في تنقيباته الشهيرة في مدينة اور ومقبرتها الملكية ، وهو الزوج الأخير للرواية الإنكليزية الشهيرة أجاتا كريستي كان قد تحدث في محاضرة له في المتحف البريطاني عن المعدان أعادهم الى الأصول السومرية من خلال قرانن عديدة تضمنت التشابه المعماري بين بيوت المعدان وبيوت السومريين كما رأيناها في الأختام والمسلات وجدان المعابد ، كذلك تشابه آلات الصيد والزراعة والنقش وغيرها من العادات ، كما أن الأثرية التي قام فيها وولي أظهرت أمكنة محتملة للظوفان الأول ، حيث أكد أن بطان الجنوب العراقي حيث الأهوار هي التي عم فيها الطوفان كما أثبتت حفريات وولي ودراسته الجيولوجية لطبقات الأرض ، وما فكه علماء اللغة المسمارية الذين قدموا مع وولي  
غير أن ماكس مالوان لم يتعمق أو يغور في البحث ، لقد تحدث فقط عن إشارات لقوم يعيشون بطبائع خاصة لا يوجد لها مشابه بين شعوب العالم ، لكن ثيسكر ذهب معهم بعيداً وصنع لهم في الذاكرة العالمية كتاباً مهماً يتحدث عن حياة عاشها بصبر وتأمل مع هؤلاء البسطاء في حياتهم ، أصحاب الذاكرة العميقة والإرادة التي لا تنتصر عليها عناد الجواميس ولا فيضانات المياه ولا رهبة أساطير وغموض التلال الأثرية التي تناثرت جزراً وتلال بين مساحات المياه الممتدة بعيداً  
كان كتاب المعدان لثيسكر وثيقة حية ترصد السلوك الاجتماعي لشريحة من البشر ، لم يقترب من حياتهم قبله في هذا العمق أحد ، ويرى القارئ بين جنبات الكتاب روحاً طيبة ومتأملة وعارفة للقيمة الإنسانية والتاريخية لمثل هؤلاء القوم ، ولو كان في مقدورنا أن نضع لهذه الحياة التي عاشها الرحالة مسمى آخر فعلينا أن نقارنه ببولومبس الذي اكتشف أمريكا وهنودها الحمر ، وفتحت بوابات العالم لمعرفة حضارات عظيمة في أمريكا الجنوبية مثل حضارة الازتيك ، وتلك التي وجودها عند سكان نيوزلندا الأصليين التي تمتلك مشابهاً كثيرة مع

حياة سومري جنوب العراق ، فيما يخص الطبايع والعادات والطقوس الدينية . فهو يبدأ مكتشفا المكان من خلال عين أدبية يسحرها المكان وجماله فتراه من أول انطباع يجد انه مشدودا لعام مبتكر وغريب وعليه أن يمضي معه بعيدا ، بعدما أجاد في وصف الانطباع الأول عن روح المكان ومعمارها كما والصادر عن دار الشؤون الثقافية العراقية (حسن ناصر ) يصفها في كتابه المعدان والذي ترجمه المترجم العراقي 2005 في بغداد .

لأبدأ الكبير المجر من قارباً استأجرت 1951 فبراير شباط من الأول الأسبوع من صباح في العمارة غادرت)) الشيخين من واحداً كان الخليفة مجيد أبوه . الهور حافة عند مجيد بن فالح بيت باتجاه الخمسة أميال رحلة في شهر بضع أمضي أن أمل كنت . مقاتل رجل ألف وعشرين خمسة تضم التي محمد البو لعشيرة الكبيرين من والآخر الحين بين أنظر . لي كبيراً عوناً سيكون مجيد بن فالح أن دوغالد ستيورات اقتراح فكان ، الأهوار بلونه النهر لكن . النظر مرمي في تلوح الأهوار كانت إن لأرى مستديرين انعطفا كلما و القارب في مكاني المبنية القصب مساكن من صف . النهر يتفرق بعده آخر منعطف . ممتدة منبسطة في يجري كان الطيني الأرض على يرتفع حصن مثل السقف مستوي الطابوق من مبنى هناك كان . الرئيس المجرى يواجه باتقان ليكسر يرتفع عمود هناك . ملونة ببسطة المسقف . المقبب البناء هو أكثر أدهشني ما لكن . وراءه الممتدة ((النهر فرعي بين بارز بشكل المبنى يقع حيث الأربعة الزوايا من واحدة كل عند السطح خط استواء كتب تيسكر أشياءه . 1973، وأخرها في عام 1950 وعلى مدى رحلات متعددة ومتفاوتة الأزمنة بدأت من عام بعناية عن أولئك الناس الذي يشعر قارئ الكتاب كم من الحب يمتلكه لهم ، وربما هو من فتح آفاق ولوج المكان من قبل الدارسين حين جاء من بعده رحالة بريطانيون وتحدثوا عن ذات الدهشة فألفوا كتباً عن هذا العالم الاستثنائي الذي يعيش فيه المعدان ، ويمارسون حياتهم بفطرة وسريالية ونبل دون أن ينتبهوا أو يحسبوا حساباً طارناً لكل ما يأتي فيه القدر وعلى قناعتهم يرسم الهاجس الأبدي ثبات الفكرة ، أن السادة العلويين والأولياء وأهل البيت ، والعلي القدير سيجمهم من كل مكروه ، لهذا حاولت مرات تفسير تلك النظرة التي رسمت خطوطها المشعة والذكية تحت أجفان معيدي في النزاع الأخير ولم أجد تفسيراً حتى عندما ذهبت الى كتب فرويد وكارل يونغ لأجد المبرر . الروحي والنفسي لتلك القناعة التي ملكت الرجل وهو يستقبل موته في هدوء أتحدث عن هذا في موقف كنت شاهده عندما نمت ليلة صيفية في بيت من بيوت المعدان وعلى سوبات القصب الذي ثبتت دعائمه في الماء ، وارعيني اهتزازه من تلاطم الموج بدعائم القصب النحيفة حيث لم انم ليلتها فيما وفي منتصف الليل ايقضنا نواح عال لمرأة في . كان مضيبي وأولاده يغطون في نوم هادئ ولا يهتمون لأي شيء جببشة أخرى فهرع إليها الجميع وكنت معهم ، لنجد رجلاً كبيراً توسط فراشا من القصب والقش وضع عليه أزار مطرز بألوان قاتمة ، فتركت انشداد الآخرين وجلسهم حول الرجل المسجي وقد أضيء المكان بنيران حطب أشعلته المرأة لتنبئ البيوت البعيدة التي يفصلها عن بعضها مساحات من الماء بأن حادثاً جلاً قد حل في بيتها ، فبدأت القوارب والمشاحيف تتوافد بسرعة وكل مشحوناً يحمل مشعلاً من النار لتحاكي القصب الكثيف والممرات المائية المتعرجة التي قد تفضي في الليل الى أمكنة مخيفة وغامضة كالتي تشابه ما في تل حفيظ الذي يعتقد أهل الأهوار إن ارواحا تسكنه وتحفظ كنوزه حيث يعتقد أن فيه كنزاً لملك قديم

## الفصل السابع مدينة أور .. بنت الأهوار والقصب والحضارة ..

(( كان وولي ينظر إلى مدينة أور بوجل وخوف . فهي من اللاني حصلن على ذكر في التوراة كونها المدينة التي ولد فيها إبراهيم وأبوه تارح ، وظل وولي طوال سني التنقيب في أور يشتغل هاجس أن يجد في لوح أو أثر أو رابط مادي أو حتى إلى إشارة تثبت وجود النبي في المكان ، ويبدو انه لم يحصل على هذه الإشارة فراح يؤمن بفرضية



إن النبي غادر المدينة مبكراً ليبدأ رحلته إلى الشمال..))

السير ماكس مالوان

كان اورتو حيكال أخ أور - نمو مؤسس سلالة أور الثالثة ( الثالثة لان أور قد أدرجت للمرة الثالثة في قائمة )) ملوك السومريين). تحت حكم اور نمو وأسلافه شولكي، أمار سويناء، شو- سن، و أبي - سن، استمرت هذه السلالة لقرن ( 2112 - 2004 ق.م ). كان اورنمو الحاكم الأول لمدينة أور تحت حكم الملك اورتو حيكال. أما كيف أصبح ملكاً فهذا غير معروف، ولكن قد تكون هناك متلازمات بين بروزه ووظيفة إشبلي- ايرا من مملكة أسن او حتى بروز سرجون. بزالة دولة لكش، تسبب اورنمو في نمو التجارة الخارجية من (دلمون، وماغان و ميلوهة) لتصب في اور. وكدليل اللقب الملكي الجديد الذي كان أول من حمله ( هو ملك سومر وأكد) فهو من بنى دولة شملت على الأقل الجزء الجنوبي لبلاد ما بين النهرين. وكغيره من الحكام العظام، فقد بنى الكثير، بضمنها زقورات اور واوروك المثيرة للدهشة والتي أخذت أبعادها النهائية خلال حكمه. أعطى علماء الآثار اسم شريعة اورنمو على الأثر الأدبي والذي يعتبر أقدم مكتشف معروف للآثار الأدبية يمتد من شريعة لبت عشتار المكتوبة بالسومرية وحتى ((.شريعة حمورابي

IRAQ HOW التعريف العربي لمدينة أور في صفحة

يوم احترقت أور من ويلات حظها العاثر مع التاريخ ، مطرت سماء الجنوب سبعة أيام بليالها ، وقيل أن القمر الذي كان يحرس أعيادها الموسمية بغبطة قيثارات الموسيقى ، حجب ضوءه عن الأرض ثلاثين ليلة ، وأن جميع الآلهة أعلنت أضراباً عاماً ، وبالتالي المعابد من بكين الى لكش أغلقت أبوابها حزناً على مدينة أحرقتها غرامها للورد والقمح وجناح البلبل. ومهما يكن فإن المدينة الولود ظلت حية وخالدة وأرخت لأزمنتها تواريخ مهمة لصليل السيوف وحفيف سعف النخيل ورثة الغبار الذي كلما رفع منه قنطار بواسطة معول المنقب ظهرت لنا دمية من فخار أو قرط ذهب أو لوح دون عليه ثمل سومري حكاية الشعر من مخاض الحرف وحتى شيخوخة الأمير. كانت أور ، الزمن الذي لايباع في نخاسة الهديان ، معه يكتشف الملك لحظة الخجل الذي تسكنه وقت سرير الألفة مع واحدة تعرف كيف تحول الغنج الى دنيا من الخمر والهديان ، ومعه أيضا يحس الجنود بأن موت الوغى يمنح التفرد رؤية لما تكون عنده في الحياة الأخرى ، فليس للسرمدية باب غير باب أور ، ولهذا كان الجنود يقفون عند حافات الرماح وينشدون لحدائق الامنية التي تسقى بدماء عشقهم لها جس المدينة وصيرورتها وضرورة أن تكون واحدة من صناعات صدور الأوسمة ، لأنها مدينة للمحاكاة العميقة وليست مدينة لملاح المطابخ وطناجر العوانس والمهن الرديئة. ولهذا كانت الآلهة لاتحس بطعم الربيع ومجالس الأوس والورد وتبادل الأتخاب إلا فوق زقورتها في ليال وصفتها الأساطير والملاحم إنها قد تدوم الف عام دون أن يحس المنتشي بخمرة قبلتها الفاتنة أنه قضى ليلة واحدة فقط ، فالمدينة تأخذك الى نشوة ما تريده هي لا لما تريده أنت ، وعليه فإن الخضوع لسحرها هاجس لا مفر منه لأنها ساحرة ، والساحرة هي من تعذب عشاقها بقساوة الشعر والخمر وحمرة القبلات ، كالذي فعلته بغى الجسد مع أنكيديو لتكسبه وتعيد إليه انسانيته الجديدة بعد حياة التوحش والبراري ومصاحبة الضباع. هذا الفاتنة التي تعلم زائرها فتنة التشهي بين **أطال** لم يبق منها شيء سوى أضرحة التواريخ المنهوبة كانت في يوم ما **مكانا** عاما تستريح فيه دموع الفقراء وطقوس الكهنة وخزانن الملوك ، وبرغم أن كل تلك الاشياء المضيئة نهبت في صناديق الشحن الاستعماري المفوض بسلب عنصرية المدينة من صلاحيات بنود ذكرت في معاهدة **سايس** - بيكو لتكتب المس (بيل) ، وهي التي كوفنت لخدماتها الاستخباراتية في العراق لتصبح مسؤولة عن الآثار العراقية في عشرينات القرن الماضي : إن ما اكتشفه (ليوناردو وولي) ، في اور يساوي قيمة ما على التاج البريطاني من جواهر بالآف المرات.

والحقيقة وولي أنه اكتشف الحياة البكر التي كانت تهنأ بعذريتها وخصوبتها ومطلقها الشهي عندما كان الإنسان يشعر بالرضا **حين** تسليه الآلهة نسمة الهواء او تمنحه طعنة السيف في معركة الشرف فقد كان يعلم ان دلمون بفردوسها البهي تنتظره هناك ، وسوف لن يتناول رغيف الشعير وقدر اللبن في فطور صباحات الجنة بل سيكون العسل ولحوم الثيران واللبن الرائب والحورية العارية هو ما سيجده على مائدة الافطار كل صباح ، ولهذا كانت اساطير المدينة وخيالها يركن الى هذه الرؤية وفيها تصاعد الاداء الروحي للمدينة وبسبب كل هذا كان ملوكها يمتنون حرفة كتابة الشعر والتأليف الموسيقي وصنع الحكايات التي تجعل ليل مواطنيهم عامرا ببهجة التمني والرضا والاستماتة في الدفاع عن حدود السلالة. ففي ذلك الزمن كان عشق المدن قد يفوق عشق النساء فتحدر

من تحت أجفان الليل حكايات لاتنتهي عن بلد صنع المأثرة في اعرق معنى ، ومنها اطلقت للبشرية شمعة الضوء الوجدانية عندما احتضنت صرخة الولادة التي اطلقها فم ابراهيم الطفل يوم ولد في بيت اوري ولم يلتفت بأجفانه صوب دمي الالهة التي كانت تملأ غرف بيوت المدينة ، بل كانت رؤياه شاخصة الى السماء هناك الاله الواحد والرب العظيم وهو قد لايشبه تلك الالهة التي ظلت تنسج من خلال نظرتها صورة ملونة للعالم الذي تعاشره من خلال عربات قوافل التجارة والقماش واللازورد الذي كان يأتي اليها من الهند وأرمينيا وكل حاضرة كانت تعيش عندما كان يعيش على الارض مجد اور المقدسة.

مدثرة بالشعر وبالطين وبالجرح. وكل بلاء يصيب فؤادها يمنحها قدرة المطاولة وصناعة سحر الفناجين ، فيقرأ دمع العين لها اساطير من اختارتهم المنافي شعراء لها وعلماء وفنانين كبار ، فقد كان الحلم الأوري ماركة مسجلة ، وكل من يحملها قطار اور القديم يأتي ومعه شذا الف مسلة والف قصيدة والف نظرة ساحرة ، حتى قيل من غبار أور يصنع الهيل ، ومن فخارها تصنع مطارح الهوى ، فمدامها مثل مدام دمعة الغنب ، ثمالة البكاء هو كل ماتجده ، والبكاء على زقورتها يعني سلمة ثانية الى طيف القمر الجالس في مخدع الشوق يُحصي اعداد **عذراوات** المدينة ويحتار لأي واحدة يكون هواه.

مدينة للقمح ، وللرمح ، ولقرط الأميرة عندما يتدلى من مسامع القيثارة وهي تنشد اشواق النخل وعذاب الخل وخلود الحلم القائل :ليس العيون من تنفي العشاق الى فيافي الحزن ، بل المدن عندما نعشقها دون ان تعلم. وما أكثر عشاق اور ، ما اغربهم ، بواصل كتروس حروب الآلهة ، لايرهبهم عطش قيظ صيف ولا خريف مطر ثقب سقوف الطين، يعطون للريح وجوههم ليدخلوها ضيفة في حدقات العيون وليكتشفوا منها نظرة الناعس لحلمه والجندي لمعركته والصيدا لسمكته والكاهن لمعبده والاله لكاسه **النذرية** ، فثمالة اور لاتشبهها أي ثمالة اخرى ، فهي تشربها من عطر الفخار ودمعة العاشق وفم النخلة.

تتألف المدينة كما أتخيلها وأنا أتجول بين أطلالها **وما** تبقى من بيوت وشوارع تمتد بأستقامة خط الشروع السماوي الذي يصعد ويهبط منه نار اله المدينة ، تتكون من أجزاء سكانية متجاوره وبهندسة واحدة ، هذا يعني أن التمايز الطبقي بين سكان المدينة ليس كبيرا ، وأغلب البيوت بنيت بالطابوق المشوي ( الأجر ) وعقدت سقوفها بمادة الجص ، وقد استخدم اهل اور مادة القير في البناء كما يظهر اليوم بين طبقات جدران معبد زقورتها الشهيرة التي بناها اورنمو مؤسس مجد سلالة اور الثالثة وقد بناها تقريبا من الآلهة ، وعليه فإن الحديث عن المدينة بمنظور اقرب هو حديث عن وقائع تاريخ لم ينته بمجرد إحراق مدينة وأختفائها بين طبقات الأرض بسبب تقادم العصور والممالك ، بل هو حديث الألف الى الياء، حكاية حضارة وهاجس بدء والكشف الأول عن الأشياء الجميلة.

يكتب التاريخ سيرة المدن من خلال ما تعطي من نتاج وأكثره النتاج الفكري فهو الوحيد الذي يصلح ليكون لسان حال ما كان موجوداً ويرى الباحث والقارئ الحقيقة كلها ، ومن هذه المدن التي رسمت للتاريخ خطا مضينا من المعرفة والرقي تأتي مدينة أور ، فعلى بعد 15 كم شمال غربي مدينة الناصرية تبدو آثار أور المظلة على التاريخ من أوله حيث أنشأ السومريون واحدة من أعرق الحضارات ، ولتبدأ أشراقه بدء الوعي والخطوات الأولى صوب نوافذ المعرفة . وليس بعيداً عن أور تقع مدينة أوروك السومرية وفيها وضع الحرف خطوط أشجانه المعرفية وبدأت الأجدية تنطق أناشيد التودد الى الآلهة ، ونطقت الذاكرة السومرية تساولاتها بحروف مسمارية دونت على لوح الطين خطوطاً متساوية الأتجاهات ومدببة النهايات لتكون اللغة المفهومة الأولى في العالم . وعندما كانت هناك مدينة أوروك التي حكم فيها الملك الأسطوري جلجامش الذي كان **يُنعم** الى أور في مواسم أعيادها الكثيرة ليأخذ من الآلهة النصح والأرشاد **كي** يبدأ رحلته الأسطورية المعروفة بحثاً عن الحياة الدائمة التي لم يحصل عليها . ومع أوروك كانت هناك مدن سومرية أخرى لها ريادات كونية متعددة كمدينة أريدو التي تبعد عن مدينة أور 15 كيلومتر والتي تفتخر من بين مدن فجر السلالات أن أهلها السومريين أو غيرهم ممن سكن هذه البقاع هم أصحاب حضارة ( العبيد ) ، الذين أبتنوا أول المعابد قبل أن تعرفها الحضارات الأخرى للتقرب من السماء ومنادمة الآلهة ، وفي الديانات التوحيدية كانت بيوتنا لذكر الله وعبادته والتقرب الى رحمته الكونية ، ومع أريدو كانت هناك مدن لارسا وتلو ولكش وسنكرة ومدن أخرى اجتمعت في نفس المحيط الحضاري الذي شيدت عليه أور مجدها العظيم . في ظل هذا الاديم الذي تكاملت فيه رؤى الإنسان الأول ، ومع أنتشار السلالات وتعدد اتجاهات الشعوب في لهجات وأمم ، كانت أور سبابة لتكون منشأ كل ما هو طيب ، وكان أهلها يفكرون قبل غيرهم بأسرار الموجودات التي يرونها حولهم حيث كان الخليج قبل مكانه الحالي يلطم بموجه الهادر أسس مدينة أور قبل أن يبتعد عنها ، لتبقى اليوم بعيدة عن النهر بعشرة أميال من جهة الشرق .وبالرغم من هذا كشفت أثريات هذه المدينة قدرة أهلها على شق الأنهر والترع والقنوات لنقرأ فيما تركوه من كشوفات أن التجارة النهريية لهذه المدينة أوصلت سفن السومريين إلى دلمون التي هي اليوم مملكة البحرين وكانت تعتبر قديماً الجنة المفترضة للخلود السومري ، وكانت

لأور أيضاً معاملات مع ( مكان ) التي هي اليوم سلطنة عمان ومع بلاد الهند وكانت الأحجار الكريمة تجلب من مناجم (باداكشان) في أفغانستان ، والفخار المميز من كرمان ووسط إيران ، ويقال أن تجارة هذه المدينة امتدت شمالاً حتى أرمينيا في آسيا الوسطى . غير أن أهم ما يميز المدينة ارتباطها بالرؤى التوراتية الأولى عندما اعتقد منقبة الأول والذي اكتشف أغلب تراث المدينة وأهمها كنوز مقبرة أور الملكية التي تعود الى ملوك وأمراء سلالة أور الثالثة العلامة البريطاني (ليوناردو وولي) الذي سحره الاعتقاد في بدء التنقيبات وكما جاء في مذكرات من رافقه في رحلة التنقيب مساعداً وهو العالم الأثري ( ماركس مالوان ) زوج الروائية الأنكليزية الشهيرة ( آجاتا كرسطي ) قوله في الصفحة 36 من المذكرات مانصه : ( كانت المغريات التي اجتذبت وولي للعودة الى أور في ذلك هائلة ، لأنها كانت مدينة قديمة ميجلة أرتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعهد القديم ، وكان ما يزال هناك عدد كبير من قراء الكتاب المقدس لقد جعلت التنقيبات رحلة ( تارح ) أبي إبراهيم يسيرة الفهم لأن حران مثل أور كانت مركزاً لعبادة القمر . وكان وولي يأمل دائماً في أن يكتشف بعض الأشارات إلى إبراهيم ، ورغم أن اسمه لم يظهر أبداً في سجل الألواح المسمارية ، إلا أنه أفصح في إعادة تكوين خلفية الوطن الأصلي لنبي العهد القديم هذا قبل هجرته من سومر التي سميت بلاد بابل فيما بعد إلى فلسطين . ) والانتساب الأبراهيمي إلى أور تؤكد حقائق تاريخية عديدة غير ذلك الأثر الذي يبعد عن قاعدة الزقورة بحوالي 300 متر ويقال أنه البيت الذي ولد فيه إبراهيم الخليل { ع } والذي ظل مهمل إلى أن فكر قداسة بابا الفاتيكان في بدء رحلة كونية بمناسبة الألفية الثالثة وفاءً من قداسته للدور الريادي الذي لعبته هذه المدينة والتي عانت من أهمال مقصود عبر حقب عديدة من دولة العراق الحديثة منذ أن سمح للبعثات الأثرية بنبش أرض أور وسرقة كل كنوزها الأثرية التي تعرض اليوم في متاحف أوروبا وأمريكا . لكن خدع السياسة وأشرطت البعض الدعائية لتسييس هذه الرحلة منعت البابا من المجيء . ويبدو أن النبي الكريم عاش في أور رداً من الزمن أكدت انتماءه إلى هذه الأرض ، لاحقاً بذلك كل الأدعاءات القائلة باليهودية بانتساب إبراهيم إليها كما ورد في سورة آل عمران من الذكر الحكيم ( ماكان إبراهيم يهودياً ) وعندما جاهر بالعودة كانت أور موطنها الأول ، وهذا ماتؤكده الآية الكريمة من سورة الأنبياء (( ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين \* إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا أبائنا لها عابدين )) ويبدو أن الكثير من أبناء أور قد آمنوا بإبراهيم { ع } وكانوا معه في رحلته الإيمانية التي امتدت من أور إلى حران ومصر وفلسطين حتى الجزيرة العربية حيث أمر ببناء الكعبة الشريفة ثم العودة إلى أرض فلسطين حيث يلبي نداء خالقه ويتوفى كما ورد في الأصحاح الخامس والعشرين - تكوين . من أول الآية السابعة إلى آخر الآية العاشرة من أن النبي إبراهيم حين توفي دفنه ولداه أسحق وإسماعيل في مغارة المكيفة في حقل غفرون بن صرصر الحثي والتي دفنت فيها زوجته ساره من قبله ، وهو نفس مقام الخليل في حبرون والذي كان في الأصل أسمة قرية أربع والتي هي اليوم مدينة الخليل التي تصمد بكل جبروت المؤمن ضد القساوة الأسرائيلية ، وهم بذلك يتعدون ضد قيم التوراة الأولى التي دعتهم بأسم الرب وقالت لإبراهيم ( انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك \* وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة).

لقد أمتزجت الأساطير بوقائع الألواح . كل واحد من أمراء أور وملوكها كان يتحدث عن المدينة بطريقته الخاصة . ولكن أور - نمو أمير البناء والعمران والتي أظهرت لنا دلائل التنقيب صورته وتماثيله وهو يحمل { طاسة } البناء على رأسه في عزم منه على أتمام بناء الزقورة التي لم تزال إلى اليوم شامخة في ذات المكان الذي بنيت فيه ، وهي أول بناء شامخ في تاريخ الحضارات بني لقصد تقرب الإنسان من الآلهة ، وقد تميزت بهندستها الرائعة وسلامتها العالية وأجرها الأحمر المفخور والذي يرجع تاريخه إلى أكثر من 5000 عام وكان ارتفاعها الأصلي يبلغ 70 قدماً ولها ثلاث سلالم كل سلم 100 درجة وكانت كل آجرة قد ختمت بختم الملك السومري أور-نمو الذي كان يحمل أسمه.

كانت أور واحدة من أكبر الحواضر البشرية في ذلك الوقت . وإذا أردنا أن نحدث القرائن بين وجودها وطبيعة الخلق الذي ابتدأه القدير العزيز بآدم { ع } ، تكون من بين المدن التي تفتخر بانتمائها التاريخي . لهذا يحق لنا أن نقول عن أور إنها واحدة من مدن بدايات التبشير الأول . ويبدو إن السير الحضاري لوجود المدينة مرهون بالأرادة السياسية لملوكها الذين عاشوا صراعات لاتنتهي مع السلالات المجاورة والممالك الإقليمية حتى دفعت ثمن نهاية ملكها إلى الأبد في معركتها الأخيرة مع الحياة عندما غزتها مملكة عيلام التي تجاور مملكة سومر وعاصمتها أور من الشرق والجنوب وأدى ذلك إلى إحراق المدينة عن بكرة أبيها وأنتحار ملكها المسمى أبي - سين ونقل إليها { سين } إله القمر ليعبد هناك.

ترتبط مدينة أور بهاجس حضاري متقدم هو هاجس الموسيقى ، فقد كشفت تنقيبات وولي في مقبرة أور المقدسة أقدم الآلات الموسيقية وأهمها قيثارة الملكة السومرية بو - أبي والتي تسمى خطأ الملكة { شبعاد } ، وهي جزء من مقتنيات كثيرة عثر عليها في الأقبية الملكية التي كان يمارس فيها نطق خاص من الشعائر الجنائزية في اعتقاد أهل

أور خاصة والسومريين عامة أن الملك عندما يموت فإن حياة في ذات الرفاهية تنتظره فكان عليه أن يصحب معه إلى قبو موته خدمه وحشمه والكثير من المقربين إليه وهم أحياء وكانوا يصطحبون معهم القيثارات لتسليّة الملك في عالمه الآخر ، وكان وولي قد وجد هذه القيثارات في تلك الأقبية وهي مطعمة باللآزورد والأحجار الكريمة الأخرى وقد سماها خطأ (الراية الملكية ) ، ولم تكن هي سوى صندوق موسيقي للقيثارة. ويمثل هذا الوصف المهيب الذي ذكره مالوان في مذكراته روعة ما وصف به هذا الكشف الأثري عندما ذكر في المذكرات النص التالي: ( كان مشهد المقبرة الملكية رائعاً عندما كنا نعمل جميعاً ، وأذكر أن أحد القبور الملكية ، الذي ضم ما لا يقل عن 74 شخصاً دفنوا أحياء في قاع المهوى الملكي العميق ، بدأ عندما كشفنا سجادة ذهبية اللون مزينة بأغذية الرأس التي عزفت Harps and lyres لسيدات البلاط ، متخذة شكل أوراق الزان وعليها آلات القيثار والقيثارات).  
الترنيمة الجنائزية إلى النهاية

لكن أهم علاقة تربط أور بالموسيقى هو أنها حكمت ل48 عاما من قبل الملك شولكي أبين الملك أور - نمو وكان هذا الملك الموسيقار يعزف على ثمانى آلات من بينها القيثارة ذات الثلاثين وترأ وتحمل أسم يرتبط بالمدينة وهو أور - زبابا . وكانت أور واحدة من أقدم مدن العالم التي أهتمت بتأسيس معاهد الموسيقى وكانت تسمى في ذلك الحين من جامع لبيبيج في بلجيكا يويد { Duchesne Gailemin } بيوت الموسيقى وما ذكرته الدكتوراة دشس جيلمن ذلك عندما ذكرت : { كان الموسيقيون فنة حرفية مهمة في وادي الرافدين ، وكان التلميذ غير الموسيقي موضع أزدراء زملائه } لهذا أدركت أور أن الرؤية القدرية للموسيقى تمثل حاجة البدء ليكون ، فكانت أور تستحضر أحلامها بالموسيقى مثلما يستحضر الكهنة ألهتهم المميزين.

كانت نهاية مدينة أور تمثل واحدة من تراجيديات نهاية المدن فبعد ان احترقت اور وفق الحادثة التاريخية أدناه لم تقم للمدينة قائمة ومعها ذاب واندثر واحد من اعرق الشعوب الحضارية وهو الشعب السومري (( إن سقوط أور الثالثة هو حدث في تاريخ بلاد ما بين النهرين يمكن ان يتابع بتفصيل اكبر من بقية المراحل من ذلك التاريخ، والفضل للمصادر مثل المراسلات الملكية، فالمرثيتان عن دمار أور وسومر، والارشيف من اسين الذي يصور كيف ان اشبي-ايرا، كمغضب وكملك أسين، قضى على ملكه في اور. ان ابي-سن كان قد شن حربا على عيلام حين تقدم المنافس الطوح بشخص اشبي-ايرا من دولة ماري، من المحتمل كان جنرالا او موظفا كبيرا. من خلال التركيز على الخطر العظيم الاتي من العموريين، عمل اشبي-ايرا على اجبار الملك على ان يعهد له بحماية المدن المجاورة لإسن ونيبور. وقد جاء طلب اشبي - ايرا اقرب ما يكون إلى الابتزاز، وبينت مراسلاته مهارته في التعامل مع العموريين ومع الأفراد من الإنسي، حتى إن بعضهم التحق به وصار الى جانبه. واستغل اشبي - ايرا أيضا الاكتئاب الذي كان يعاني منه الملك بسبب إن الإله انليل " كرهه"، تعبير قد يراد به الفال السيئ نتيجة الاختبار من القرايين ، والتي استند اليها الكثير من الحكام في القيام باعمالهم ( او تجنب القيام بتلك الاعمال حسب الحالة). قام اشبي - ايرا بتحصين إسين و في السنة العاشرة من حكم ابي - سن، بدأ باستخدام معادلته الخاصة بالتقويم في المعاملات، وتصرف بشكل يماثل التخلي عن الإخلاص. وظن اشبي - ايرا بانة الشخص المفضل لدى الإله انليل، وزاد هذا الظن من خلال حكمه لنيبور، حيث معبد الإله. وأخيرا اعلن نفسه السيد المطلق على كل جنوب بلاد ما بين النهرين، ..ويضمنها اور

وحيث قوى اشبي - ايرا عن قصد ممتلكاته ، استمر ابي - سن بالحكم على ارض استمرت تتقلص لأربعة عشر عاما أخرى. ولقد جاءت نهاية اور نتيجة سلسلة من المحن: تفشي المجاعة، وان أور حوصرت واحتلت ودمرت من قبل العيلاميين الغزاة وحلفائهم من القبائل الايرانية. ولقد اقتيد ابي - سن أسيراً ولم يسمع عنه بعد ذلك وفي روايات أخرى قيل انه انتحر. وتسجل المراثي بأسلوب حزين النهاية المؤلمة لأور، والكارثة التي حلت بسبب حنق ..وغضب الإله انليل

اليوم أور ترنو إلى من يلتفت إليها بعد كل هذا الأهمال المتعمد وهي تنتظر يدأ خيرة لتقيم على ترابها المقدس أحتفاءً حضارياً كل عام ، يستعيد فيه المحفون تلك القيم العظيمة التي منحت البشرية اضاءة النور الأول إلى مدرك الوعي وكانت سبابة في كل شيء ، وهذا يتطلب جهداً عالمياً خاصاً تشارك فيه كل المنظمات الوطنية والدولية ، وأهمها وزارة الثقافة العراقية ومنظمة اليونسكو التي تعنى بتراث الشعوب والحفاظ عليه ، وسيكون على علماء الآثار والمعرفيات الفكرية الأخرى أن يأتوا الى هنا من شتى أنحاء العالم ، لتقيم لهم أور كرنفالا للثقافة والفن وكل الأبداعات الإنسانية التي تسهم في أرساء السلام والعدل بين شعوب الأرض كافة مادامت هي البدء . وأن يعتنى بالمكان جيداً أذ لا تحوي المدينة اليوم أي مرفق سياحي . ورغم أنها استقبلت منذ بدء الألفية الثالثة وحتى إطلاق صافرة الحرب الأخيرة آلاف الحجيج الأوربيين ، الذين فرض عليهم أن تكون زيارتهم لأور يوماً واحداً لعدم وجود أماكن مبيت لانقة ومرافق خدمية . لهذا فيمكن للمكان أن يكون منطقة أستثمار جيدة تعود بالفائدة إلى أقتصاد البلد والمدينة الشيء الكثير...فحتماً هذه الأرض تستحق لتكون ملتقى لثقافات الأرض كلها..

وعليه فإن مدينة مثل مدينة أور حملت عراقية المكان والأثر ، وذكرت على أنها مهدا للكثير من النبوءات والملاحم فإن احياءها يتطلب جهداً اممياً فعلاً ، وثمة افكار كثيرة لدى ابناءها من ساكنيها أو الذين اغتربوا بفعل قسوة السياسة والقهر ولكن لديهم أفكاراً محددة لتطوير واقع المدينة وتخليصها مما يحيط بها ، ويذكر أن مدينة أور كانت اول مدينة تشغل بال منظمة كتاب بلا حدود في مشروعها العالمي المعنون ( الحفاظ على المدن الأثرية ) ، حيث صنفت كمدينة معرضة الى التدمير وتلف أثارها ، وكان لصاحب المقال نداءً في هذا الاتجاه غداً أول نداء مليباً لمنطوق بيان المنظمة وحملتها وكان بعنوان (أور دمعة بمعطف جندي).

يعرف الزمن جيداً أن أور هي مشكاة الحرف الذي يفكر بقلبه . مدينة تتسور بالرؤى الخضر فتعطي للمكان شيئا من رعدة ذاكرة التلقي من أن الصوت والنغم المتشكل في القيثارة السومرية

يوجي لنا بأن السامع والمسموع واقعان تحت تأثير ميتافيزيقيا التخيل وفي قلب مجرة أتت بأولئك الأقوام من بعيد لا منظور كي يسكنوا الجنوب العراقي ويصنعوا الحلم بحدائثه اجمل ألف مرة مما تصنعه الأغاني المضغوطة بنقاوة . لا تضاهي في قرص ليزري

كانت أور معطفاً لزمان سرمدى . مدينة تتشكل في بينتها كل أشكال الحياة . الشعر الطاغوت العبادة الطينية قصائد الحب مراسيم دفن الأحياء وقراءة ضوء النجوم بأرقام العد العشري ولهذا فهي في منظور الحلم مدينة قائمة ودائمة أو هكذا يحسها ذهني وأنا أقيم كوخى على بعد فرائخ قليلة من تلالها الملتحية بالصمت وهدير الطائرات وكشوفات المقاولين وهم يتحدثون بسرية مبعثرة عن مكان لمدارج الطائرات وفنادق فارهة وشوارع تستقبل بأكثر من ممر ضيوف الحاضرة الفاتيكائية وحجاج قد يأتون من بروكسل ليزوروا بيت النبي إبراهيم ع اعتمادا على ما نطقته التوراة ببعته من اور الكلدان

. أفكر بوضع المدينة الأثرية فأجد نفسي كمن لاحول ولا قوة لديه إزاء الرغبة بالتعامل مع المكان لاتعني الثقافة في مكان محتل أنها سلطة لفرض هاجس ما بل تكاد تكون صوتا يزحف إلى مساحات التذكير . والموعظة وتدوين اليوم على أساس إن التفاصيل ستبقى إلى ذلك الغد الذي قد نعرف فيه ما حدث بالضبط كان أندرية مالرو صاحب رواية الأمل يقول : كنت عندما أرى معطفا ألمانيا يرتدي برد باريس أتوقف عن الكتابة شهرا كاملاً..!

هاجس كهذا قد يختلف هنا بحكم ضرورات عهود الطواغيت التي ظلت أور تعاني من مشقة ضيق بدلات حروبهم حد الذي صنعت لشبابها ذاكرة منافي متعددة وقطارات سافروا بها وهم يبصقون الخجل قصائد وأمنية للعودة ثانية وارتداء معاطف الحلم المصنوعة بمهارة خياطي أزمنتها دانجو أدامو ، الملك الموسيقار شولكي ، رشيد مجيد ، عبد القادر الناصري ، قيس لفته مراد ، داخل حسن ، حضيري أبو عزيز ..فائق حسين ، صلاح نيازي ، كاظم جهاد ، عقيل علي ، فاطمة المحسن ، بلقيس نعمة العزيز ، جميل حيدر .. هم كثر لا تسعهم أكبر سلال الفاكهة ورغم هذا الأحياء والموات منهم يتطلعون حد هذه اللحظة لخلق مودة الرؤى الجديدة لمدينة تربوا بها وعاشوا على تربها وشربوا الشاي في حاناتها وصلوا في معابدها.

مدينة تقف عند ذاكرة الفعل الشعري لتصنع خيالها بتورية التأليف وحسن الخاطرة وجزالة الحكمة. عاشت أور عهود الأزل بذاكرة عاطفية وبنيت رؤى التفكير الأول بمشاعر تختلط فيها الكثير من حدائث تفكير اليوم الشعرية والعسكرة وسن القانون وشق ترع الري وبناء القصور والمعابد وتزيين أعناق الأميرات بالحلي المحفورة بدقة وجمال من أثمان الأحجار الكريمة فيما بقي هاجس الحرب وروح السلطة قمة الهرم في تفكير مدينة أرادت أن تصل بخيالها إلى كل الدنيا وتؤلف عهدا حدائثيا للشعر والهندسة والموسيقى وما يخلفه الطين لحظة تألف مع ذاكرة العاشق.

المدينة اليوم هي أطلال أمس ذهب بعيداً . لم تعد سوى تلال تتبعثر فيها خطوات أغنام الرعاة وجزمات جنود متعددي الجنسيات فيما أفرغت يد السراق ورجالات التنقيب الأثري أقبية المقبرة من كنوزها التي عدت يوم كشف عنها أول مرة مطلع عشرينات القرن الماضي من قبل ليوناردو وولي واحدة من أجمل الكنوز الإنسانية وأقدمها صناعة وإبداعا ومنها قيثارة أور وراياتها والخوذ الملكية وصناديق الموسيقى والرفات المنتظم لضحايا طقوس الموت السومري حيث كان الملك في رحلة الموت يجلب معه كل حاشيته لتونسه في ظلمة العالم الآخر وكان الجميع يجلبون معهم ما غلا ثمنه وخف وزنه وتلك الحاجات الخاصة العائدة لأجدادنا من سكنة المدينة هي اليوم ملكا لمتاحف الغرب فيما المكان الأثري لا يحوي سوى على ظل البيوت الغابرة وأسس المدينة القديمة وأقبية صارت ملاذا للهواء الرطب وجحورا لبنات آوى!

حال بانس لمدينة كانت في يوم ما تقطر شعرا وفنا وأساطير  
مدينة لم يبق منها سوى ذاكرة التراب وبيت سوروه وبنوه دون دراية وعجالة وأفترض أن في واحد من غرفه ولد

النبى إبراهيم الخليل ع حيث يعتقد بما شاء الله أنه ولد هنا وفي الوهاد الفسيحة للمدينة العظيمة حيث كان والده النجار يسكن فيها بدأت تباشير النبوة تسقط أشواق التوحيد ومتهدجات الروح في رغبة فصل الكون عن دمي الطين وإرجاعه إلى ملك التوحيد الأزلي وروح العقل الإله الواحد . غير إن المكان لم يستغل جيدا في جعله آصرة سلام لنبي كان همه أن يشعل شمعة السلام عبر رحلة أخذت من أحلامه أن صنع بها رؤى التأسيس لوحداية الملة والدين . الكثير أرادوا أن يحققوا شيئا من المكان . أن يجعلوا مكان المهدي ورابية التصور الأولى التي انتبه فيها النبي إلى سر الخليفة مكانا للتسامح والحوار الحضاري ونبذ الإرهاب والعنف وحتى البابا الراحل في مطلع الألفية الثالثة أراد من هكذا مكان نقطة بدء رحلة إيمانية تبدأ من اور وتنتهي بأورشليم القدس لتكون رسالة معبرة عن روح اللقاء الوحداني والحضاري بين شعوب وملل الأرض كلها ولكن في كل مرة السياسة تفسد أحلام القديسين وترمي الأمر في الزاوية الضيقة فلا يتحقق وبذلك فقدت اور بفضل التسييس وجر الأمر إلى ساحة الأعلام وتصفية الحسابات يوما مشهودا يعيد الانتباه إلى هذه المدينة كي تفكر المؤسسات الأممية ومنها اليونسكو بتحسين المكان وإعادة مشاريع التنقيب فيه وتحويله إلى معلم أثري يخضع للحماية الدولية كونه إرثا إنسانيا ومكانا ولدت فيه ذاكرة أكثر من نبي نوح وإبراهيم وأيوب وحتى لو ط القريب إلى إبراهيم كانت اور ساحة لبعض رؤاه الوحدانية. أن هذا الأمر يتطلب جهدا خاصا وتأسيس منظمة مجتمع مدني تعنى بالمكان وذاكرته ، وأن يتم الاتصال بالمنظمة العالمية ( اليونسكو ) ، كي يُلفت انتباهها إلى أن اور التي كانت في يوم ما حاضرة الدنيا وصناعة شجنها المعطر بالشعر والموسيقى ، هي اليوم مريض للطائرات والنسيان وأحلام المقاولين بتأسيس مشاريع وهم سريعة من نقود الدول المانحة ولم يكن بين كل هذه المشاريع مشروع يحمي الأثر ويفتش عن حياة مطورة بين تلال الرمل لم تصل إليها بعد يد المنقب والعابثين ، دعوة ترسم رغبة تكوين أثر طيب يسعد ذاكرة الأجيال السومرية التي لازالت تنن من وجع الماضي وتستظل أملاً بالجديد الذي لم يكشف عن عقب حدانقه بعد وقد يتحقق ذلك بدستور فيه فقرات توشح إلى رغبة صارمة وحقيقة بحفظ التراث والتنقيب عنه ومعاقبة العابثين وسراق التلوث والإطلال من خلال تأسيس جهاز مؤسساتي صارم وعلمي يعنى بهكذا أمكنة ، لأن العبث قد يخلف ما ترك إلينا لنحافظ عليه يخلفه رماد يذري في رياح النسيان والانقراض وقديما قالوا : الشعوب التي لا تمتلك ذاكرة هي شعوب ميتة. إنها أور التي ترتدي لغاية هذه اللحظة معاطف الجند الغراء وتنتعل أذية الرمل المنسي توجه صوتها إلى أهلها في الوطن والمنافي ليتذكروها وليقودوا لأجلها حملة عالمية وليكن عنوانها من اجل أن نعيد إلى أور سحرها السومري . دعوة لإنقاذ مدينة...

وليفكر إنسان غيور ونبي من أولئك الذين يجدون في حلمه باستعادة ظل الشعر والموسيقى أن يتظافر معنا ويكتب عن تصوره لدعم فكرة مشروعنا الصغير الكبير والتي تكون مدينة الناصرية مكانا لثمرة البدء ، حيث تحتاج المدينة إلى حملة تضامن ومناشدة وتدخلات ومنظمات إنسانية داعمة لتطوير وإحياء تراث الشعوب كي نعيد للمكان رغبته بأن يبقى مصطبة لاستراحة الآلهة ومكاناً ساحراً لإنشاد الشعر وإقامة مواسم الزواج والحصاد وعبادة الرب الواحد...